الفصل الثالث
عصر التجديد

استطاع الجاحظ فى أكثر من موضع بكتابه « البيان والتبيين » أن يقفنا على ما شاب الحياة الأدبية فى العصر الجديد من تغيير . وقرر فى صراحة أن العامة[١] كانوا حجر الزاوية فيما حدث ، حتى إن الأدباء أصبحوا يحسبون حسابهم فضلاً عن أن من هؤلاء العامة مَنْ اشتغل بالأدب .

ولقد لحظ فيما لحظ أن الكُتَّاب مثلاً مالوا عما كان متوعراً وحشيًّا وإن لم يختاروا قَطُّ الساقط السوقى[٢] . كما لحظ أن خُطَبَ العرب الأقحاح والسلف الطيب خلت تمامًا من الألفاظ المسخوطة والمعانى المدخولة « وأكثر ما نجد ذلك فى خطب المولَّدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخيّر والتفكر »[٣] .

وإذا ذهبنا نقلب صفحات هذا الكتاب بعد ذلك نجده يقول مثلاً إنّ خالد بن صفوان — وهو من بلغاء عصر التجديد الأفذاذ — كان يلحن ، وإن هذا اللحن فشا حتى سُمع بالبادية فقيل فيها « هذه عصاتى » فى حين اعوجّ لسان أهل المصر بعامة ، فكان ثمّ مثاتُ الحالات التى تشبه حالة عبيد الله ابن زياد بن أبيه . وقد حاول ابن المقفع أن يقوّم عبثًا بعضَ هذا الاعوجاج ،

---

(١) يقول الجاحظ ١ : ١٠٥ «إذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة والصناع والباعة ... وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا ، فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم — الزنج ونحوهم — ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضاً » .

(٢) البيان ١ : ١٠٥

(٣) نفسه ٢ : ٢١

وكان من العجب العجاب أن يقابل أديب — كذى الرمة — من يتفاصح فيهتف به ، فإذا مرّ الشعبىّ بِمَوَالٍ يتذاكرون النحو يقول لهم : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده[١] .

وأما ابن أبو الفرج فيعرض للموضوع من ناحية أخرى ، ويروى ما يمكن أن نستدل به على قيام مذهب جديد فى الشعر يخالف مذهب الأوائل. لقد روى أن الأصمعى سئل عن بشار ومروان بن أبى حفصة أيهما أشعر فقال : بشار ! فلما سئل من جديد عن مبرات الحكم قال « لأن مروان سلك طريقًا كثُر مَنْ يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشاركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقًا لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به . وهو أكثر تصرفًا وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعًا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل »[٢] .

ويشبه ذلك — على نحو ما — ماذهب إليه حمزة الأصفهانى حين قال فى مقدمة الديوان الذى جمعه لأبى نواس « إن تعاطيه بقول الشعر كان على غير طريقهم ، لأن جُلَّ أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره فى ذكر الطرد ووصف الخمر ولغة النساء والغلمان ، وأقلّ أشعاره مدائحه . فأبو نواس فى توفّره على الغزل بإزاء عِمران بن حطان وصالح بن عبد القدوس ، فى توافرهما على الجِد الصرف »[٣] .

تلك معالم قد لاتكون كافية فى رسْم الطريق على نحْوٍ واضح ، ولكنها لاتعدم الدلالة على قيام حالة فى الأدب لم تكن قَبْلُ . وهى حالة عميقة عَرَضَت للمبنى والمعنى على حدٍّ سواء ، وسنرى آياتِ ذلك فى الصفحات التالية .

---

(١) راجع البيان والتبيين ٢ : ٦٢ ، ٦٤ ، ١٥٦ ، ١٦١

(٢) الأغانى ٣ : ٢٥

(٣) راجع مقدمة ديوان أبى نواس (ط . القاهرة لإسكندر آصاف سنة ١٨٩٨) :

١ ــ فى النثر

الخطابة :

الظاهرة الفذة فى هذا العصر أن النزعة التى غلبت عليه كانت نزعة التناحر بين العرب وغير العرب ، وكان الفرس على رأس غير العرب . وقد مثّل هؤلاء ، الشعوبيةَ فى اشتمالها على « الآزاد مردية » التى كانت تخلع بخاصة على الأرستقراطية الإيرانية ، وهذه كانت تبغض آل الرسول وأصحابه ممن « فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالإسلام »[١] .

ولقد أسهم الشعر فى تصوير تلك الشعوبية ــ على ما سنرى ــ فى حين تقاصرت الخطابة عنه ، على رغم أنها لم تعدَم كباراً بقوا لها من عهد التقليد كخالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة وأبى حمزة الشارى ، ولاكباراً آخرين وجدوا أصلا فى عصر التجديد كواصل بن عطاء وصديقه بشار والفضل بن عيسى وابنه وسهل بن هارون[٢] . ومن المؤكد أن جيل واصل ورواده لم يأخذوا بالخطابة إلا على أنها صناعة يُدَرَّبُ عليها ، ولقد روى أنّ صفوان نفسه كان ممن يتدارسون الأخبار والأشعار والآثار[٣] وأن شبيباً كان راوية ويصدر عن بلاغة خاصة[٤] ، وأن واصلا كان يصدر عن معاناة وأناة وكدّ ــ على الأقل كى يتجنب الراء ــ وإن كان بشار حاول أن يضمه بين المرتجلين المصاقع ؛ فلقد روى أنه اجتمع فى مجلس خطابة عند عبدالله بن عمر بن عبد العزيز

---

(١) البخلاء ٢٠٩ والمعروف أن « آزاد» بالفارسية هو الحر و « مرد » بمعنى الرجل ، فيكون معنى « آزاد مرد » الرجل الحر ، وعلى ضوء ذلك يكون « الأحرار » الذين عناهم بشار بقوله :

تفاخر يا بن راعية وراع بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار

هم هؤلاء الشعوبية الذين يمثلون الآزاد مردية !

(٢) يحسن مراجعة البيان والتبيين ١ : ٣٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٢٠٢

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٢٨

(٤) الأمالى ٢ : ٢٥٥ والبيان ١ : ٩٠

والى العراق مع خالد وشبيب ، وخطب كل منهم وتفوّق واصل فقال بشار :

تكلفوا القوْلَ والأقوامُ قد حَفَلوا ... وحبَّروا خطبا ناهيك من خُطب

فقام مرتجلاً تغلى بداهتُه ... كمرجل القَيْنِ لمّا حفَّ باللهب

وَجانَبَ الراء لم يشعرْ به أحـــد ... قبل التصفُّح والإغراقِ فى الطلب[1]

أصبحت الخطابة إذن عملية تحبير تلتمس لها الأسباب . وكان لابد أن تصبح كذلك ، لأخذ كثيرٍ من الشعوبية بها . وإذا كان لم يُتَحْ أن تتطور التطوّر العضوى — لانشغال العصر بالكلام وتنظيم الفقه على نحو ما مر بنا — فإنها ظلت موضع عناية ما من الخلفاء العباسيين ،وكان هؤلاء خطباء أبيناء كالمنصور والمأمون !

ولم تحفظ لنا الأثبات كثيراً من آثار خطباء البصرة فى هذا العصر . إما لأنها لم تكن فى المستوى الذى يغرى الرواة بنقله . وإما لأن أصحابها شُهروا بفنون أخرى غير الخطابة : فبشار مثلاً شاعر كبير ، وواصل متكلم جدلى . وسهل بن هارون كاتب حكيم . ويزيد بن أبان الرقاشى قاص مجيد !

ومع ذلك فنستطيع بما تحفظه لنا الأثبات عن غير هؤلاء أن نصور خطابة عصر التجديد تصويراً ما . وهو إن لم يكن ينمّ عن قوة كقوة الخطابة فى العصر العربى الخالص . فإنه لا شك ينم عن طاقة لا تريد أن تموت ولا تريد أن تحتجب وراء اشتغال القوم بالعلم والتأليف فيه .

ولو بدأنا بخالد فكأننا عدنا إلى فصاحة الأولين ، وقد قيل عنه إنه كان مشهوراً بالبلاغة وحسن العبارة[2]. ومثله تماماً شبيب ، وكلاهما كان يعرف كيف

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٧

(٢) أمالى السيد المرتضى ٢ : ٢٦٢ (ط الحلبى) .

يخاطب الطبقات كافّة . وقد روى عن شبيب أنه كان ممن لا يستثقله أحد قط « ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره — قالوا — ولما مات شبيب أتاهم صالح المرى أو بعض من أتاهم للتعزية فقال : رحمة الله على أديب الملوك وجليس الفقراء وأخى المساكين »(١) .

ومن تلك الرواية نرى أنّ الخطباء حتى هذا العصر كانوا يتشكلون وفق ما يصدر عنه الموضوع الذى يطرقونه ؛ فكانوا يطيلون ما احتاج الموضوع إلى إطالة ويوجزون ما رأوا فى الإيجاز غناء ، مع أننا سنرى فى هذا العصر عبد الحميد الكاتب يطيل الرسائل حتى تصبح الإطالة أسلوباً متبعاً .

فإن عرضنا للجانب الشكلى وهو ما يتصل بالمبنى ، لحظنا اتكاء الخطباء على الحاسة اللغوية التى تريد أن تروع بقوة البيان ؛ فكنا نرى الفصاحة ينزع إليها نزعاً وكنا نرى التحبير غاية كل خطيب . وإذا الأمر ينتهى إلى نوع من الفن تختار فيه الكلمة ، وتؤدى هذه الكلمة فى عبارة يحترز فيها من الخطأ ، مع عناية بصقلها وتزيينها . على أن ذلك لم يكن يقربها من النمط الأول الذى كان يتشادق به الأحنف وزياد والحجاج والحسن البصرى ، ولقد روى عن رجل من بنى مِنْقر أنه قال إن خالد بن صفوان تكلم « بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، وإذا أعرابى فى بتّ ما فى رجليه حذاء ، فأجابه وددت الله أنى كنت مت وأن ذلك لم يكن . فلما رأى خالد ما نزل بى قال : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، وكيف نسابقهم وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟ »(٢) .

ورد خالد يلقى ضوءاً على أسلوبه الخطابى ؛ فهو من النوع المقسم الذى تكاد تتعادل فيه العبارات على نحو الكلام المسجع ، بل ربما سجع أحياناً ، قال للعبدرى « أتتكلم وقد هشّمتك هاشم وأمّتك أمية وخزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ومنتهى دارها ، وتفتح لها الأبواب إذا قبلت وتغلقها إذا أدبرت »(٣) .

---

(١) راجع البيان والتبيين ١ : ٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ .

(٢) السابق ١ : ١٢٩ والبت طيلسان من حرير أو برد غليظ

(٣) نفسه ١ : ٢١٨ وفى أمالى المرتضى الرواية نفسها باختلاف ١ : ٢٩٥

وقال لهشام « يا أمير المؤمنين أتم الله عليك نعمَهُ ودفع عنك نقمَهُ ، وجعل ماقلَّدك من هذا الأمر رُشْداً وعاقبة ما يؤول إليه حمداً ، وأخلصَهُ بالتقى وكثَّرهُ لك بالنمَا ، وكدّر عليك منه ما صفَا ولا خالط سروره بالردى . فلقد أصبحتَ للمؤمنين ثقةً ومستراحًا ، إليك يقصدون فى مظالمهم ، ويفزَعُون فى أمورهم .هذا مقامٌ زيَّنَ اللهُ به ذكرى وأطاب به نشرى ، إذ أرانى وجه أمير المؤمنين ولا أرى لمقامى هذا شيئًا هو أفضل من أن أنبه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ليحمد الله على ما أعطاه »(١).

وقال للسفاح وقد أمره أن يتكلم فى ناس من بلحارث بن كعب وكانوا هجوه « وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج بُرْد ، ودابغ جلد، وسائس قرد ، وراكب عَرْد . . دل عليهم هدهد ، وغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة »(٢).

وهكذا لا يخرج نثر الخطابة عند خالد عما وصفت ، ويظهر من مطالعة آثار شبيب —وهى نادرة— أنه كان من الطراز نفسه أيضًا .فإن عدلنا عنهما جميعًا التقينا بأبى حمزة الأزدى الشارى الذى كان من نُسَّاك الإباضية وقوّادها ، وقد مات سنة ١٣٠ للهجرة بعد أن أقضّ مضاجع البصريين طويلاً ، وانتهى أمره بإخفاق ذريع بعد أن نادى بخلع مروان بن محمد .

قال أبو حمزة لأهل الحجاز «أتعيرونى بأصحابى وتزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلا شبابًا ؟والله إنى لعالم بتتابُعِكُمْ فيما يضركم فى معادكم ،ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .. شباب والله مكتهلون فى شبابهم . غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ؛ فنظر الله إليهم فى جوف الليل ؛ محنية أصلابهم على أجزاء القرآن . كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها . وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم . .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٤١

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٢٠

كلال الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم . واستقلوا ذلك فى جنب الله ! حتى إذا رأوا السهام قد فُوِّقَتْ والرماح قد أُشرِعتْ . والسيوف قد انتُضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت . . استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . ومضى الشاب منهم قُدُمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسنُ وجهه ؛ فأسرعت إليه سباعُ الأرض وانحطت إليه طير السماء . فكم من عين فى منقار طيرٍ طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله »[1] .

تلك فقرات صغيرة من خطبة طويلة لأبى حمزة ، وهى فقرات تبيّن مذهب الخوارج الأدبى ، من حيث هو أقوال متماسكة قوامها البديع بمفهوم ابن المعتز ، أقوال متماسكة تنم عنها مزايا لغوية تطبعها بطابع إنشائى خاص ؛ من إيجاز وعدم تبسُّط فى المعانى ، إلى اصطناع السجع والجناس أحيانًا ، والتوازن أو التزاوج أحيانًا أخرى . بل إلى إلحاح مقصود على الصورة الفنية من تشبيه واستعارة ونحو ذلك ، ونلحظ إلى جانب ذلك أن الكلمة فصيحة قوية ، يقدر بها أبو حمزة على حبك صوره الفنية كلها !

فإن انتقلنا إلى الرقاشيين وجدنا أكثر من فِطَحْلِ خطابة ، غير أن الجميع كانوا ينزعون نزعة قصصية[2] . وكان كل من الفضل بن عيسى وعبد الصمد ابن الفضل الرقاشيين سجاعًا ، وقد سئل عبد الصمد « لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافى عليه ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر . .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، ١٠٣ والتتابع : التساقط فى الشر ، أنضاء عبادة : تعبير فى معناه أن العبادة أكلت منهم حتى ضاءلت أجسامهم فهى من غير شحم ولا لحم ، أطلاح سهر : تعبير فى آخر معناه أن السهر أخذ منهم حتى أهزلهم .

(٢) راجع البيان ١ : ٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ على أن تقدر أن النزعة القصصية هنا قد تكون مجرد خبر لا تأنق إلا فى عباراته .

فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط . وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره »[١] .

وفى هذا القول ما يغنينا عن أى شرح ؛ فقد ظهر تماماً أن الأسجاع وإن كانت دون الشعر تكلفاً فإنها أصبحت غاية أو أصبحت حاجة . وربما كان بعض هذه الحاجة رغبة القائل فى حفظ قوله . وربما كان بعضها متابعة لما ظهر فى الشعر من ميل إلى اصطناع البديع وإلى التأنق .

وهنا يطالعنا واصل بن عطاء بخطبته التى هزّ بها منافسيه عند والى العراق ، والتى تجنب فيها الراء فمدحه بشار معجباً . قال واصل « الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقى بلا نهاية .. الذى علا فى دُنُوّه ، ودنا فى عُلُوّه ؛ فلا يحويه زمان . ولا يحيط به مكان . ولا يؤوده حفظ ما خلق . ولم يخلفه على مثال سبق ! بل أنشأه ابتداعاً . وعدّله اصطناعاً . فأحسن كل شىء خلقه ، وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدلّ على ألوهيته . فسبحان الله لا معقب لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لسلطانه . ووسع كل شىء فضلُهُ . . لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ حبة وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه إلهاً تقدّست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه . وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ؛ فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام .. يُعْصَى فيحْلُم ويُدْعَى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وأشهد شهادة حق وقول صدق — بإخلاص نية ، وصحة طويّة — أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه ، وخالصته وصفيه »[١] .

ومن هذا المثال يتضح لنا أن طريقة واصل فى التقائها أحياناً بطريقة الأولين فإنها تزيّت بزى العصر : من تعادل فى الفقرات ، إلى مراعاة الوزن فى أكثر

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٩٤

(٢) جمهرة خطب العرب ٢ : ٤٨٢ (لأحمد زكى صفوت ط . الحلبى سنة ١٩٣٣) .

الكلمات ، مع دقة ملحوظة فى التأنق وفى التفاصح . ونستطيع إذا أضفنا إلى تلك النماذج جميعاً بعض كلام سهل بن هارون أن نقول إن الخطابة فى هذا العصر كانت خليطاً من فصاحة القدماء وأناقة المحدثين .

قال سهل [١] فى قوم استمعوا إلى المأمون يخطب « مالكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفهمون ، وتفهمون ولا تعجبون ، وتنظرون ولا تبصرون ؟ والله إنه ليفعل ويقول فى اليوم القصير مثل ما فعل بنو مروان وقالوا فى الدهر الطويل . . عربكم كعجمهم ، وعجمكم كعبيدهم ، ولكن يعرف الدواء مَنْ لا يشعر بالداء »[٢] .

ومع ذلك فقد نزعم متعجلين أن ظهور عبد الحميد — ويعتبر رائد النثر الفنى فى عصرنا هذا — لم يستطع أن يحول الخطابة من حال إلى حال . وكلام سهل وإن لم يظهر أنه تأثر فيه بثقافته الفارسية لا يفعل ذلك أيضاً ! بل لعل الرجلين أقرّا من بعض الوجوه طريقة الازدواج إلى جانب السجع [٣] . ولعلهما وحدا أن خير ما يفعلان هو أن يصدرا برشاقة أسلوب وأناقة صنعة !

هذا عن الشكل . فأما المضمون — وهو قطاع الحياة الذى يتزيا به هذا الشكل — فإن النصوص التى بين أيدينا لا تسعفنا بمناقشته كثيراً ، لأن هذه النصوص — باستثناء خطبة أبى حمزة وكلام سهل — لا تكاد لندرتها أن تقيم بناء اجتماعياً معيناً . بل يبدو أن تقارب الخطباء جميعاً — من صفوان إلى سهل — للأمراء والخلفاء لم يبعث إلا أقوالاً سبّحت بحمدهم ولم تحاول نقد أفعالهم . وهذا من غير شك سبب آخر من أسباب ضعف الخطابة فى هذا العصر !

أما أبو حمزة فقد كان يصور حال الخوارج تصويراً صادقاً ، وكان يكشف

---

(١) يظهر سهل بن هارون فى آخر عصرنا خطيباً كاتباً بصرياً سميراً للمأمون ، وينقل عنه الجاحظ كثيراً ، وجعل مبتدأ بخلائه رسالة سهل . ويحتفى بآرائه فى البلاغة ، ويسجل بإعجاب قدرته على الكلام والفصاحة .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢١٦ .

(٣) المعروف أن عبد الحميد بالذات لم يكن يسجع .

عن ضياعهم وصبرهم ، وتنقلهم بين البلاد. فى حين كان سهل يصدر عن شعوبية واضحة ؛ فهو يهاجم الأمويين ، لا لأنهم خصوم للعباسيين — فقد انتهى أمرهم فى المشرق تمامًا — ولكن لأنهم رمز لكل ما يكرهه « الآزاد مرد » سهل بن هارون ، ويشير من ناحية أخرى إلى حال سيئة انتهى إليها أمر الناس ، بحيث أصبح عربىّ هذا العصر كأحد موالى الأمويين ، كما أصبح عجميه كعبيدهم .

القصص :

وفى هذه المرحلة من حياة البصرة كادت القصة أن ينتهى أمرها — إلا فى حالات خاصة — من حيث هى عمل سليم اللغة . وبعد أن كان الأمير أو الخليفة يحرص على أن يستدعى القاصين يستمع إليهم كمعاوية ، أو يحضر مجالسهم فى المسجد كعمر بن عبد العزيز ، لم تجد هذه « الصناعة » إلا العامة والجهال يلتفون حولها ، بينما راح رجال بعيدون عن العلم الصحيح ينشطون لها .

ولكن ظل للقصة بعض الجادين كالرقاشيين وأبى بكر الهذلى و « خلق كثير من المتعلمين » إلا أن موت الحسن البصرى وابن سيرين فى أوائل القرن الثانى قد فرّق بين عهدين للقصة ، وامتاز العهد الثانى بكثرة « جمهور العوام » الذين يميلون للقصص ، وبكثرة القاصين وقلة الفقهاء [١] .

ويحدثنا أبو طالب المكىّ بصراحة عن القصص فيقرر مرة أن صاحبه من « المتكلفين » الذى يدخل عملهم الزيادة والنقصان وذلك بعد عرضه قصة تبين أن الرسول كان يرى القصة علمًا لا يضر جهله [٢] . ومرة أخرى أنه بدعة حاربها علىّ بن أبى طالب فى البصرة أيام الفتنة وطرد من المسجد كل القاصين ما عدا الحسن البصرى [٣] .

ومن سياق ما يرويه أبو طالب نفهم أن القصة لم تهن إلا لأنها بعدت عن

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى ١٢٢ (ط . المنيرية سنة ١٣٤٧) .
(٢) قوت القلوب فى معاملة المحبوب ١ : ١٩٤ ، ١٩٥ (ط . المصرية سنة ١٩٣٢) .
(٣) قوت القلوب ٢ : ٢١

« مجالس الذكر » وإلا لأن القاص لم يعد من العلماء . وتغيرت الأحوال تماماً ولم يعد ثمة واحد كالحسن البصرى يخلو مع أتباعه النسّاك والعباد فى مجالس الذكر ببيته « مثل مالك بن دينار وثابت البنانى وأيوب السختيانى ومحمد بن واسع وفرقد السنجى وعبد الواحد بن زيد »[١] وإذا الأمر يصبح فوضى ؛ فبينا نرى من القاصين من يعظ فيصدق فى وعظه ومن يتكلم فى الزهد فيجيد الكلام ، نرى من ينشد « الأشعار الرائقة الغزلية فى العشق » ومن لا يحاول أن « ينهى عن ذنب » ويزوق عباراته عن زليخا ويوسف ، ثم من يريد أن يظهر بمظهر العالم ؛ فيحمل غيره روايات ربما أنكرها أصحابها . وفى هذه المجال روى أن الأعمش « دخل البصرة وكان فيها غريباً فنظر إلى قاصّ فى الجامع وهو يقول : حدثنا الأعمش عن أبى إسحاق ، وحدثنا الأعمش عن أبى وائل — قال — فتوسّط الأعمش الحلقة ورفع يده وجعل ينتف شعر إبطه ، فبصر به القاصُّ فقال : ياشيخ ألا تستحى ، نحن فى علم وأنت تفعل هذا ؟ فقال له الأعمش : الذى أنا فيه أفضل من الذى أنت فيه ! قال : كيف ؟ قال : لأنى فى سُنَّة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك شيئاً »[٢] .

لمثل هذا ، ولا جتماع النسوة والغلمان والجهال حول القاصّ فى المسجد ، كان يُزْهَدُ فى القصة ، ويحكى الجاحظ بعد أن أورد أسماء كبيرة للقُصّاص كأبى بكر الهذلى الخطيب البين ، وكابنه مطرف ، وموسى بن سيّار الأسوارى ، وأبى العباس الضرير ، ومالك بن عبد الحميد المكفوف . يحكى أن « سفيان بن حبيب لما دخل البصرة وتوارى عند مرحوم العطار قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصًّا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه ! فأتاه — أى أتى صالحا المرىّ — على تكرّه كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه »[٣] .

والرواية على أية حال تقرر أن سفيان لم يجد فى صالح المرى إلا خيراً حتى

---

(١) قوت القلوب ٢ : ٢٢

(٢) راجع تلبيس إبليس ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ وقوت القلوب ٢ : ٢٥

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٥

قال : هذا ليس قاصًّا ، هذا نذير ! غير أنها لا تعنينا هنا إلا من حيث إنها تدل على روح العداء التى كان يقابل بها القَصص حتى انتهى أمره ، على أيام الجاحظ إلى حال من السوء جعلت الأديب الكبير يقرن القاص بمن أصيب بعَتَه أو خِسّة . وعقب تعرُّضه لما كان يرويه المسجديون والمربديون من أشعار المجانين ولصوص الأعراب قال « وكان عندنا قاص يقال له أبو موسى كوش ، فأخذ يومًا فى ذكر قصر الدنيا وطول أيام الآخرة ، وتصغير شأن الدنيا وتعظيم شأن الآخرة فقال : إن الذى عاش خمسين سنة لم يَعش شيئًا وعليه فضل سنتين ! قالوا : وكيف ذاك ؟ قال خمسًا وعشرين سنة ليل هو فيها لا يعقل قليلا ولا كثيراً ، وخمس سنين قائلة ، وعشرين سنة إما أن يكون صبيًّا وإما أن يكون معه سكر الشباب فهو لا يعقل ، ولا بد من صبحة بالغداة ونعسة بين المغرب والغشاء ، وكالغشى الذى يصيب الإنسان مراراً فى دهره ، وغير ذلك من الآفات ؛ فإذا حصلنا ذلك فقد صح أن الذى عاش خمسين سنة لم يعش وعليه فضل سنتين »[1] .

* * *

هذا التصوير العام للقصة فى عصر التجديد لا يغنينا شيئًا فى معرض مناقشة إطار هذا الفن ، لأنا لا نملك قصة واحدة حفظتها لنا الأثبات لتراث تلك الحقبة . ويشمل هذا الحكم نوعى القُصّاص ، الرصين منهم وغير الرصين ! ولم ترد إلا أقوال أثارت الانتباه بفصاحتها من ناحية وبسجعها من ناحية أخرى ، ويُعَدُّ الجاحظ بحق خير من عنى بتسجيل تلك الأقوال .

بل يقرر الجاحظ فى أثناء عرضه البيانى أن الفضل بن عيسى الرقاشى — مثلا — كان سجّاعًا يقول فى قصصه « سل الأرض فقل : من شَقّ أنهارَكِ وغرس أشجارَكِ وجنى ثمارَكِ ؟ فإن لم تُجِبْكَ حواراً ، أجابتك اعتباراً »[2] .

ويحكى أن ابنه عبد الصّمد السجاع كأبيه وإن كان أغزر منه وأعجب ، تكلم فى البعوضة ثلاثة مجالس تامة ، وكان يروى الشعر فى قصصه وخطبه

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٢٦ وسنة الليل هى حالات النوم ، والقائلة الحارّة

(٢) نفسه ١ : ٢٠٣

ثم يسوق بعض هذا الشعر — وهو قصة وعظية مرجزة — فى قوله :

أرض تخيَّرها لطيب مَقيلها ... كعْبُ بنُ مامةَ وابنُ أم دُؤاد
جرت الرياحُ على محل ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعـــاد
فأرى النعيم وكلّ ما يُلْهى به ... يوما يصير إلى بِلى ونفـــاد[1]

فإن انتقل إلى أبى بكر الهذلى يسوق له عبارات مسجوعة أهمها ما نقلناه عنه فى معرض مفاخرته أهل الكوفة[2]، ولكنه يعنى تمامًا بأحد القاصين يدعى عبد الأعلى ، ويجعله متوهمًا عليه الغفلة ثم يسوق عبارة اقتبسها من إحدى قصصه يقول فيها « الفقير مرقته سلقة ، ورداؤه عِلقة ، وجَرْدَقته فِلقة . وسمكته شِلِقة »[3]. كما يحكى له طرفة تكشف عن أسلوب القاصّ فى التفكير وفى صياغة هذا التفكير قصة ، يقول إن النون قال للضب حين رأى إنسانًا فى الأرض أنى قد رأيت عجبًا ! قال وما هو ؟ قال : رأيت خلقًا يمشى على رجليه ويتناول الطعام بيديه ، فَيُهْوى به إلى فيه! قال إن كان ما تقول حقًّا فإنه سيخرجنى من قعر البحر وينزلك من وكرك من رأس الجبل »[4] .

وتعنى هذه الرواية — من الناحية الشكلية — أن عبد الأعلى لم يكن كالهذلى ولا كالرقاشيين يصدر بأسلوب مسجّع دائمًا ، وإنما هو يصطنعه ما كان يرى أنه فى حاجة إليه حتى وإن كان يتصدى لغير القصة . والجاحظ الذى كان مفتونًا بسجعه يروى له فى الخصاء قوله إن الخصى إذا خُصِى « قويت شهوته ، وسخُنت معدته ، ولانت جلدته ، وانجردت شعرته ، واتسعت فقحته وكثُرت دمعته »[5] .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٣ ، ٢٠٣

(٢) انظر صفحة ٢٨ من هذا الكتاب .

(٣) الحيوان ١ : ١٠٧ وفى الأصل مرقته سلفة — بضم السين وبفاء — وهى ما يتعلل به قبل الغداء ؛ العلقة : قميص بلا كين ، الجردقة : الرغيف ، فلقة : نصف ، شلقة : سمك صغير خسيس.

(٤) الحيوان ٧ : ٢٠٧ والضب : ضرب من الوزغ طويل الذنب صغير الرأس تأكله العرب ، النون : الحوت والجمع أنوان ونينان .

(٥) الحيوان ١ : ١٠٧

الكتابة :

الأمر الذى ليس فيه شك أن المصادر تسعفنا بتصوير الكتابة فى هذا العصر ، بعد أن رأيناها فى عصر التقليد قاصرة مطموسة المعالم بعض الشيء . وكان أخذ المسلمين فى البصرة بثقافات القطاع غير العربى — من فارسية ويونانية وهندية ونبطية — أقوى ما بلور فكرة النثر كأثر فنى فى كتاب .

ونقابل بادئ ذى بدء بابن المقفع . ولكن بعد أن يكون قد شاع فى البصرة ما أثر عن ماسرجويه الذى كان يسكن هذا المصر . وما خلفه سالم مولى هشام[1] وما تناقلته الكتب من آثار عبد الحميد الذى أسهمت به الشام فى إرساء قواعد الكتابة فى عصر التجديد .

أما ابن المقفع فهو فى البصرة أول من فى السلسلة التى كان من حلقاتها سهل بن هارون وأبو الحسن المدائنى وأبان اللاحقى والعطوى وسعيد بن وهب ثم الجاحظ . ولقد تعاون هؤلاء على إخراج كتابة فنية لم يكن للعرب عهد بها طوال عصر التقليد . وإن كنت لا أنكر أن ثمة من كان يعمل — إلى جانبهم — فى تدبيج الكتب الرسمية التى كانت استمراراً للنشاط الكتابى أيام الأمويين .

على أن شوقى ضيف يرى أن كتابات ابن المقفع وأضرابه شيء ، وكتابة الرسائل الرسمية شيء آخر ، لأنه كان من عادة الكتاب الرسميين[2] أن يبالغوا فى تنميق نثرهم وزركشته « حتى استطاعوا أن يحدثوا فيه مذهباً جديداً هو مذهب التصنيع وهو يعتمد عل السجع والبديع ، وقد أخذت تتحول عباراته إلى ما يشبه القطع الزخرفية الدقيقة »[3]

والحق أن مبنى النثر الفنى — بعيداً عن أطر الرسميين — لم يصبه تطور

---

(١) راجع الحيوان ١ : ٧٦ ، ٦ : ٣٣٠

(٢) من هؤلاء فى البصرة عمر بن أبى حليمة وعنان بن عبد الحميد (الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٠٣ ، ١١٠).

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٤٥

كبير ، ولم يقدم ابن المقفع ولا سهل بن هارون أشكالاً جديدة . وظل الاثنان يدوران فى فلك الأولين ، وإن لونا أفكارهما بألوان عقلية طارئة . والأمر يبدو كما لو كان ابن المقفع مجرد مترجم ، وكما لو كان سهل والمدائنى ناقلين نُقولا ترد فيما كتب الجاحظ . وأما العطوى الكنانى فلا نكاد نعرفه إلا شاعراً من أصحاب الكلام . وقد قرر أبو الفرج أنه لم يصل إلى أحمد بن دؤاد إلا لمذهبه ، حتى لقد احتذى سائر الكتاب معانيه فيه فجعلوه إماماً[1] .

ومعنى ذلك أننا يجب ألا نعتمد كثيراً على غير ابن المقفع ككاتب حفظ التاريخ كتبه ، وعلى عبارات للمدائنى نثرت نثراً فى « أغانى » أبى الفرج وفى كتب الجاحظ المختلفة . وهذه لا شك لونها الناقلان ، كما تلونت رسالة سهل فى صدر « البخلاء » بفن مؤلفه .

فهل يتعارض هذا مع ما قلت بد ياً إن المصادر تسعفنا لا شك بتصوير كتابة هذا العصر ؟ أظن لا . . بخاصة إذا ناقشنا المضمون مناقشة موضوعية ، تكشف عن ارتباط قيمتها بأوضاع العصر وتقاليده .

وفى هذه الحال نقف عند ابن المقفع متأملين فاحصين ، فالرجل كما عرفنا يلعب دوراً كبيراً فى الترجمة سواء من الفارسية أو من اليونانية . غير أنه لم يصدر إلا بعد أن أخذ الفصاحة من آل الأهتم الذين كان منهم خالد بن صفوان وشبيب ابن شيبة[2] ، وعمل زمناً فى دواوين الحكومة ؛ فكتب فى ديوان عمر بن هبيرة[3] فى كرمان وللمسيح بن الحوارى فى نيسابور ثم كتب لعيسى بن على فى البصرة أيام المنصور[4] ، وكان آنذاك على اتصال مستديم بالأعرابى الفصيح أبى الجاموس

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٥٨ ، ٥٩

(٢) قال المرتضى فى أماليه ١ : ١٣٦ (ط . الحلبى) كان ابن المقفع مع قلة دينه جيد الكلام فصيح العبارة له حكم وأمثال مستفادة ! وروى الجاحظ فى البيان والتبيين ١ : ١٥٦ أن ابن المقفع كان يضيق باللحن .

(٣) يرى طه حسين أنه كتب لابنه داود (من حديث الشعر والنثر ٤٦ ط . المعارف سنة ١٩٥٧)

(٤) الوزراء والكتاب ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩

ثور بن يزيد الذى كان يفد على آل سليمان بن على بالبصرة[١].

ولا أحب أن أطيل فى نقل ما يروى عن قدرة ابن المقفع على البلاغة — وكانت له آراء سديدة فيها[٢] — وإنما أحب أن أؤكد أن هذه القدرة هى التى جعلته يبذّ المؤلفين بكل شىء حتى بترجماته! فلقد استوى له الأسلوب فى أى فن نثرى يطرقه ، وكان خطيبًا دربه آل الأهتم ، وعدّه الجاحظ مع عبد الحميد الكاتب من أبيناء اللسان[٣] .

ويبدو لى أن شيئًا إنْ كان أثّر فى أسلوبه فليس كالخطابة ، ومن خصائص هذا الفن الميل إلى الإيجاز الذى تُستَحَبُّ فيه العبارة السلسلة الجزلة ، ومنها اصطناعُ الفواصل الكلامية التى تصاحب المنطق ، وتداول الحكم والأمثال التى يرددها الجيل كجزء من تراثه . وفى هذا الإطار صدر ابن المقفع ، فقال عنه أحد المحدثين بعد طول مناقشة ومدارسة « سرّ تأثير ابن المقفع فى مختلف العصور سلاسته وجزالته[٤] » . ويقول آخر « إنه يمتاز بزيادة المتانة فى التركيب والبراعة فى التعبير »[٥] .

على أن عبد اللطيف حمزة يذهب إلى أنه على الرغم من فتنة الناس بآثار ابن المقفع التى تُعَدُّ معجزة النثر ، فثمة مأخذ يؤخذ به هذا الأسلوب ، وهو الغموض والإبهام اللذان نجما عن معالجته الترجمة[٦] . وهذا الجانب لم يلفت نظر حمزة وحدَه ، وإنما لفت نظر غيره كطه حسين وكشوقى ضيف ، فهل يناقض ذلك ما قررتُ من أمر عبارته الواضحة الجزلة ؟

---

(١) ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزة ٥٠ ، والفهرست ٦٧

(٢) من ذلك قوله على مايروى المرتضى إن البلاغة هى « التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وروى الجاحظ أنه قال « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة » راجع أمالى المرتضى ١ : ١٣٧ والبيان والتبيين ١ : ٩١

(٣) راجع البيان والتبيين ١ : ١٥١

(٤) أمراء البيان لمحمد كرد على ١ : ١٠٨

(٥) أحمد زكى « باشا » فى مقدمة الأدب الصغير ٨ (ط . جمعية العروة سنة ١٩١١) .

(٦) ابن المقفع ١٣٤ ، ١٣٥

لهذا بحث آخر يعفيني منه — مؤقتاً — أني بصدد « تقييم » عام لعصر كامل، ولا ريب أني واقف عنده في الفصل المستقل الذي عقدته للكاتب بَعْدُ !

وفي هذه الحال نسرع فنقرأ له قوله « وإنما ضربت لك المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكي، فإني لستُ أقدر أن أمتنع منهم ولا أحترس ، وإن كان رأي الأسد لي على غير ما هم عليه من الرأي ، فلاينفعني ذلك ولا يُغْنِي عني شيئاً . وقد يقال خير السلاطين من عَدل في الناس! ولو أن الأسد لم يكن في نفسه لي إلا الخيرُ والرحمة ، لغيَّرته كثرةُ الأقاويل ؛ فإنها إن كثُرتْ لم تلبَثْ دون أن تذهب الرقةُ والرأفةُ . ألا ترى أن الماء ليس كالقول ، وأن الحجر أشدُّ من الإنسان؟ فالماء إذا دام انحداره على الحجَر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثر فيه ، وكذلك القول في الإنسان »[1].

ومن « رسالة الصحابة» التي رفعها للمنصور فقيل إنها أهلكته قوله عن اختلاف الأحكام في البصرة والكوفة وغيرهما « ومما ينظر أميرُ المؤمنين فيه من أمْر هذين المصْرَين وغيرهما من الأمصار والنواحي ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيما في الدماء والنساء والأموال ؛ فيستحل الدّمُ والمرأة بالحيرة ، وهما يُحرّمان بالكوفة. ويكون مثلُ ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ؛ فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى ! غير أنه على كثرة ألوانه ، نافذٌ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ؛ يقضي به قُضاة جائر أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريقٌ إلا قد لجَّ بهم العجبُ بما في أيديهم والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنَع بها مَنْ سمعها من ذوي الألباب »[2].

ومن النَّصَّيْن السابقيْن ، وبرغم ما قد يُفطن إليه من ضرورة اختلاف

---

(١) كليلة ودمنة تحقيق محمد حسن المرصفي ١٣٨ (ط . الترقي سنة ١٩٢٧) والنص يختلف عما ورد في الكتاب الذي حققه إلياس زكريا ١٦٦ ، ١٦٧ (ط . بيروت سنة ١٩٦٣) وهذا يبعث على الشك في النسخ المتداولة لكليلة ودمنة .

(٢) رسائل البلغاء ٢٦ (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦) .

أسلوب القصة التصويرى فى كليلة ودمنة عن أسلوب النصيحة التقريرى فى رسالة الصحابة ، نرى أن الكاتب كان يقظًا جدًّا إلى ألفاظه . وهو فى يقظته تلك يختارها واضحة سهلة ، ثم يصوغها فى إتقان وجمال ، ويطوعها بحيث نستطيع بسهولة أن تكشف عن أفكاره .

ولعل اهتمام ابن المقفع بالفكرة هو ما حدا به إلى أن يعزف عن محسنات البديع ، اللهم إلا من مزاوجة يراها لازمةً ، ومن توازن تأثره من كتّاب عصره وخطبائه . وإن كان هذا لا يمنع من أن يكتب فى الأدب الصغير عن . ضروب الإنسان « لا يذكر الفاجر فى العقلاء ، ولا الكذوب فى الأعفّاء ، ولا الخذول فى الكرماء ، ولا الكفور بشىء من الخير »[١] .

ولقد هدَت الدراسةُ التى قام بها عبد اللطيف حمزة فى « الأدب الكبير » إلى أن عنايةَ ابن المقفع بالمعنى دون اللفظ انتهت به إلى ضرورة العدول عن الصور البيانية « فلن تعثر فيه على أكثر من تشبيهين ظاهرين »[٢] .

وأما شوقى ضيف فيتابع طه حسين فى افتراض أن ابن المقفع ربما أعياه الأداء اللغوى ففسدت عبارته أحيانًا . وقرر فى صراحة أنّ الترجمة جعلت «لغته فى كتبه تتعثر فى كثير من جوانبها» ثم ساق بين يدى القارئ أمثلةً لهذا التعثر من رسالة الصحابة ومن الأدب الصغير . وعاد بعد ذلك فقرر أنه كان « يُعْنى باختيار ألفاظه وصقلها وتنقيحها ، وقد كان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب فى اللفظ والتوعر فيه »[٣] .

خلاصةُ ذلك العرض كله أن بين أيدينا أسلوبًا لم يكن كأساليب السلف ، وإن اعتمد عليها . وكانت الألفاظ تختار بعناية وترصف بعناية أيضًا ، فتجمع بين الجزالة والوضوح برغم تعمُّدها الإيجاز . وإذا كان ثمةَ ما يؤخذ على صاحبه ، فربما مرجعه إلى أنه كان يغوص باللغة ليرصد أعماق النفس وخلجاتها ، وربما

---

(١) الأدب الصغير ٥٤

(٢) ابن المقفع ١٣٤

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٥٠ ، ٥١ ومن حديث الشعر والنثر ٤٩ ، ٥٠

لأنه لم يستطع أن يسلم مما لم يسلم منه معاصروه الذين يتعلمون اللغة ليصح لسانهم فيخطئهم التوفيق فى بعض الأحيان !

وننتقل بعدُ إلى سهل بن هارون الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عملاقًا ، وقدمه الفضل إلى المأمون فجعله على بيت الحكمة ، وظل فى منصبه حتى مات فى العام الخامس عشر بعد المائتين للهجرة(١) . وأنا أعلم أنّ ما سُقْتُهُ حتى الآن عنه لا يكشف عن طبيعته كفنان ، وأسلوبه فى الخطابة لا يكاد يرسم لنا شخصية واضحة ؛ فكأنما شاركنا القدماء فى التجنى عليه والانصراف عنه ، إذ لم يُعْنَ به إلا قلة ، وسكت عنه كبار كالقفطى وابن خلكان وابن الأنبارى .

لا أدرى لماذا .. وإن كنت أحس أن شدة تعصبه على العرب واصطناعه الحكمة على الطريقة الفارسية ومن ثَم لقب « بزرجمهر الإسلام » أثّرا فى إهمال آثاره التى أرجح أنه كتب أكثرها أيام الرشيد . ولولا إعجاب الجاحظ به ولولا هذه الصلة الفنية التى تقوم على وجود ملامح أسلوبية مشتركة بين الرجلين ، ولاسيما فى الحجاج العقلى والمزاوجة ، لحجب الغمام قمة من قمم البيان العربى .

ومع ذلك فما يروى لسهل لا يشفى غليلاً ؛ فهو مقتضب ، وهو يختلط بأقوال غيره حتى لا نستطيع تمييزه ، وربما ذهبت بنا الشكوك مذهبًا لا نقبل به من هذه الأقوال إلا فكرتها . والجاحظ الذى يثبت له فى البخلاء رسالة كاملةً ، لا يكفُّ عن الإشارة إليه فى أى كتاب آخر من كتبه ، بل يسرد بعض ما يعزوه إليه كأن يقول « وقال سهل بن هارون : بلاغة الإنسان رفق ، والعىّ خُرق » وكأن يقول أيضًا « وقال سهل بن هارون فى كتاب له : واجبٌ على كل ذى مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها ، كما بُدئ بالنعمة قبل استحقاقها »(٢) .

فإن أضفنا إلى ذلك بعض ما أثبته الجاحظ فى أول بخلائه على أنه رسالة كتبها

---

(١) معجم الأدباء ١١ : ٢٦٧

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٤٧ ، ٨٨

سهل فعلاً، رأينا كاتبًا من طراز يشبه ابن المقفع، بل رأينا كاتبًا فيه من ابن المقفع شيء ومن الجاحظ شيء آخر، فثمة مزاوجة وبعد عن السجعة، وثمة كلمة حلوة جزلة لا خشونة فيها ولا توعير، وثمة عبارة موجزة طرحت كأنما هي في معرض حجاج.

ولقد كان سهل يقول الشعر، وكان خطيبًا أيضًا، بل عدّه الجاحظ من الذين جمعوا بين الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار والمجلدة والسير الحسان المولدة، وقرر أنه عارض ابن المقفع في كليلة ودمنة فألف «ثعلة وعفرة» كما ألف غير ذلك[1]، فهل طبع هذا نتاجه بطابع معين غير ما حددتُ من ملامح؟

لنقرأ كتابه إلى محمد بن زياد الزيادي البصري وكان قد وَجَدَ عليه «أما بعد فالسلام على عهدك وداعَ ذي ظنٍّ بك، في غير مَقْلِيةٍ لك ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك، إلى أوان فَيْأتِك، أو يجعل لنا دولة من رجعتك»[2].

ثم لنقرأ بعض رسالته إلى بني عمه، وكان قد كتبها حين ذموا مذهبه في البخل، فالتقطها وصدر بها كتابه في البخلاء، ويقول سهل «بسم الله الرحمن الرحيم... أصلح الله أمركم وجمع شملكم، وعلمكم الخير وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإنّ أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار؛ وقد كانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوب جمّةً فتأملْ عيّابًا، فإنه إنما يعيب بفضل مافيه من العيب! وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيحٌ أن تُنْهَى عن مرشد أو تُغْرَى بمشفق. وما أردنا مما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاءَ النعمةِ عليكم. ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حُسْن النية فيما

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٥

(٢) زهر الآداب ٢ : ٢٥٨

بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم وشهرنا به فى الآفاق دونكم ، فما كان أحقكم — فى تقديم حُرمتنا بكم — أن تَرْعَوْا حقّ قَصْدنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ؛ فلا العذرَ المبسوط عرفتم ، ولا بواجب الحُرْمة قمتم »[١].

وليس من شك فى أن طريقة سهل قد اتضحت الآن ؛ وقد يزاوج كالجاحظ ولكنه لا يجنح إلى المحسنات البديعية ولا إلى التوعير ولا إلى الجدل فحسب ، وإنما أيضًا يعمد إلى ضروب من « التوقيع الصوتى والترادف الموسيقى ، وما من شك فى أنّ هذه كانت خطوة نحو أسلوب الجاحظ »[٢] ، الذى يقوم أساسًا على الموازنة بين التلوين العقلى والتلوين الصوتى .

* * *

هذا من الناحية الشكلية ، وجدنا أنّ الكتّاب لم يتطوروا كثيراً بالكتابة من حيث الصياغة والبناء وتزيينه[٣]. وكانت الخطوة الكبيرة التى خطوها فى ميدان التطوير هى فيما عالجوه من موضوعات ، وفى هذه الناحية كنا نجد الكتاب يتعاونون على خلق نثر فكرى رائع ، وعلى بسط آفاق الكتابة بحيث تلذّ كما يلذّ الشعر .

وعلى أساس النظرة التى أخذتُ بها نفسى فى تقويم المضمون الفنّى ، نستطيع أن نناقش الكتابة باعتبارها مثلت ماضيًا وعبرت عن حاضر وصورت

---

(١) البخلاء ٧

(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٥٧

(٣) لخص الجاحظ مذهب كتاب هذا العصر بقوله : يحتاج الكاتب من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ، ويحطه من غريب الأعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جداً وينقحه ويصفيه ويزوقه حتى لاينطق إلا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله وأسقط زوائده (الحيوان ١ : ٩٠) .

حاجة لمستقبل ؛ فهى تعبير عما كان ، وهى تعبير عما هو كائن ، ثم عما سيكون !

غير أنه لا يُتاح لنا شيء مما نريد قبل أن نصدّر قولنا بالشعوبية ، فلقد أصبحت الفكرية التى يصدر عنها كلُّ فن من فنون الأدب تقريباً ، ولئن زعم زاعم أنها كانت فى الشعر أقوى ، ففى النثر من آثارها ما لا يمكن إنكاره ، بل لعلها فى الكتابة أعظم أثراً منها فى أى قصيد !

ولقد ينبغى أن أقول إن الجاحظ فى عَرضه القيم للعلماء الكتاب لحظ أن الشعوبية التى مثلها الفرس — فى هذا العصر — كانت تعنى بتجويد مادة كتابها وبحسن إخراجه[1] وقد اضطرها ذلك — فيما أرى — إلى أن تحمل على كُتّابها الأولين ما لم يقولوه . وهذا ما جعل الجاحظ يشك فيما فى أيدى الناس من كتابات منسوبة للفرس ، قال : « ونحن لا نستطيع أنْ نعلم أنّ الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصيغوا مثل تلك السِّيَر »[2] .

هذه مسلمة لا تقبل جدلا . أفلم نَرَ أنْ ما يثار حول « كليلة ودمنة » خير دليل على الحمل ، وأقوى شاهد على أن أصحاب الكتابة فى هذا العصر كانوا من الشعوبية ؟

وأخرى أننا متى بحثنا عن أصل الكتّاب ، رأينا الدم أجنبياً والعقل خليطاً من فكريات مختلفة ، وحتى روّادها خارج البصرة كانوا موالى ، كعبد الحميد وغيره !

---

(١) الحيوان ١ : ٧٠

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٦ ، وأبو عبيد الله هو معاوية بن عبيد الله بن يسار الكاتب الذى أصبح وزيراً للمهدى سنة ١٥٩ للهجرة ، وأما غيلان فهو ابن مروان الدمشقى . وكان مرجئاً وقيل بل كان من أوائل القدرية وقد قتله هشام ، وسجلت له فصول من كلامه فى عيون الأخبار .

ونصل الآن إلى ما نريد من حيث كانت الكتابة تصويراً للماضى ، فنلتقى بالقولة المشهورة التى تنسب لأحمد بن يحيى النحوى « من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبى عبيدة ، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائنى » أى أبى الحسن . فأما أبو عبيدة فهو أكبر من عمل على تدمير العرب فى ظل الشعوبية ، وكان من عادته إذا رأى للعرب فضيلة نسبها إلى غيرهم . ونقدم الآن ما يقوله عن الرقاشيين « وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة ؛ فلما سبُوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الإسلام وفى جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق فقاموا فى أهل هذه اللغة كمقامهم فى أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب . وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ، ودخله الخوَرُ »[1] .

وفى خالد القسرى[2] يقول « بلغ خالدَ بن عبد الله القسرى أنّ الناس يرمونه بالبخل على الطعام فتكلم يوماً ، فما زال يُدْخل كلاماً فى كلام حتى أدخل الاعتذارَ من ذلك فى عُرض كلامه ؛ فكان مما احتج به فى شدة رؤية الأكيل عليه وفى نفوره منه أن قال : نظر خالدٌ المهزول فى الجاهلية يوماً إلى ناس يأكلون وإلى إبل تجتر ، فقال لأصحابه : أترونى بمثل هذه العين التى أرى بها الناس والإبل ؟ قالوا : نعم ! فحلف بإلهه ألا يأكل بقلاً وإن مات هُزلاً . فكان يغتذى اللبن ويصيب من الشراب ، فأضمره ذلك وأيبسه ، فلما دقّ جسمه واشتد هزاله سمى المهزول ! ثم قال خالد : هأنذا مبتلى بالمضغ ، ومحمول على تحريك اللحيين ، ومضطر إلى مناسبة البهائم ، ومحتمِلٌ ما فى ذلك من السخف والعجز . ما بالى احتملته فيمن لى منه بدّ ولى عنه مذهب ! ليأكل كلُّ امرئ فى منزله ، وفى موضع أمنه وأنسه ، ودون ستره وبابه »[3] .

وهكذا يقدم أبو عبيدة صورة مشوهة عن الماضى ، لا تقل شرًّا عن الصورة

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢٠٣

(٢) كان أحد البصريين السادة وولى العراق فى عهد هشام عام ١٠٦ مدة أربع عشرة سنة وحارب الشعوبية فنفست عليه .

(٣) البخلاء ٥٨

التى رسمها للصوص العرب ، وإذا كان هذا العالم قد اتَّبع فى كتابه عن اللصوص أسلوب الإخباريين ، فليس شك فى أنه — وقد كان يبغى به الاستهواء — صاغه صياغة جيدة ، وأظن أن الجاحظ حين عرض للتلصص إنما أراد أن يقدم من غير العرب أشقياء يسطون ؛ فيردّ بذلك عمليًّا على كاتب شعوبى[١] .

وكان حديث البخل قد انتشر فى هذا العصر ، فأدلى أبو عبيدة — كما رأينا — بدلوه فيه ، وكشف عن صفحات سود لماضى العرب ، واشترك معه فيه أبو الحسن المدائنى ، بل اشترك الأصمعى أيضًا . وإذا الجاحظ يجد فيما يروونه مادة لكتابه القيم ، ويقول عن هؤلاء العلماء « فأما أحاديث الأصمعى وأبى عبيدة وأبى الحسن فإنى لم أجد فيها ما يصلح لهذا الموضع ، إلا ما قد كتبته فى هذا الكتاب ، وهى بضعة عشرَ حديثًا »[٢] وساق أحاديث عن غابر العرب وشنع — وهو لا يدرى أو يدرى — على رجال الأمويين بخاصة ، فيروى عنهم أنهم قالوا ولم يحدد أيًّا من العلماء الثلاثة صاحب الرواية « قالوا : كان بلال ابن أبى بردة[٣] قد خاف الجذام ، فوصفوا له الاستنقاع فى السَّمْن ؛ فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه ، فاجتنب الناسُ فى تلك السنة أكل السمن . وكان يُفطِر الناسَ فى شهر رمضان فكانوا يجلسون خلقًا وتوضع لهم الموائد ، فإذا أقام المؤذن نهض بلال إلى الصلاة ، ويستحى الآخرون ، فإذا قاموا إلى الصلاة جاء الخبازون فرفعوا الطعام »[٤] .

ونقل طه الحاجرى عن مخطوطة للآبى فى إستنبول رواية رهيبة ذكرها المدائنى عن سليمان بن عبد الملك ، خلاصتها أن هذا الخليفة التهم أربعين دجاجة سوى صنوف أخرى أكلها[٥] ، كما نقل أن له كتابًا فى إياس فقيه

---

(١) راجع الحيوان ١ : ٣ ، ٢ : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٦٦

(٢) البخلاء ١٣٥

(٣) هو أحد الأمراء الذين تولوا البصرة وقضاءها أيام خالد القسرى ، وظل أميراً حتى سنة ١٢٥ هـ ، وجده أبو موسى الأشعرى .

(٤) البخلاء : ١٣٧ ، ١٣٨

(٥) مقدمة البخلاء لطه الحاجرى ٢٠

البصرةَ الذكى الذى مات سنة ١٢٢ للهجرة[١] .

فإذا تركنا هؤلاء إلى ابن المقفع وجدناه يحتال احتيالاً آخر ليبعث مجد الفرس ، وإذا هو فى « الأدب الكبير » مثلاً وقد عقد بابه الأول فى علاقة المحكوم بالحاكم يبعث مجد الملوك الفرس بقوتهم وظلمهم ! وفى كليلة ودمنة يجعل باب برزويه ، وهو رأس أطباء فارس الذى تولى — فيما يقول ابن المقفع — نَقْلَ الكتاب من الهندية إلى الفارسية ، عرضًا رائعًا لحياة فيها سماحة وفيها إيمان وفيها ثقة بالفضيلة ما كان فيها خير ومحبة ، بل فيها إيمان بالآخرة ، وتلك قيم حَرَصَ على أن يؤكدها الإسلام . ومعنى ذلك أن برزويه — وكان ابن مقاتل فارسىّ وسيدة من بنات الزمازمة — ليس من أمة لا تعرف إلا الشرف المادى على نحو ما يقرر العرب ، بل كان فيها خير يعدل ذلك الخير الذى فتح به هؤلاء العربُ الأمصارَ .

إن ماضى فارس ليس شرًّا ، وهى إذا كانت تتيه بحضارتها الغابرة فليس معنى تيهها به قصورها عن الفضائل الخلقية ، فلا خير إذن فى الإسلام !

هذه هى الفلسفة التى صدر عنها ابنُ المقفع ، وإن يكن لم يصرح بها . على أن اتجاهه المجتمعى كان يؤكدها ، وكان يرمى من ورائها إلى هدم الدين الذى فتحت باسمه بلده . وما أظن ترجمته لكتب مانى وابن ديصان ومرقيون ومزدك — وهم فرس على ما رأينا — لا تعفيه من هذه التهمة ، بل تثبتها رواية للباقلانى تقول إنه حاول معارضة القرآن[٢] .

فإذا انتقلنا إلى سهل بن هارون ، وجدنا الرجل فى اصطناعه حكمة الفرس يمجّد الفرس — وكان سمى بزرجمهر الإسلام — واكتفى بأن طبَّل للمأمون حتى كان كل صدوره تملقًا ، والغريب أنه تجرد فى الانتصار للبخل كما انتصر له عبد الرحمن الثورى — الثرى البصرى الكبير — وكانت الشعوبية تمتدح البخل

---

(١) البخلاء ٣٦٢

(٢) إعجاز القرآن ٤٦ ، ٤٧ (ط. دار المعارف سنة ١٩٥٤ تحقيق السيد صقر فى سلسلة ذخائر العرب)

أحياناً للحط من جود العرب الذى عدّته هوساً ، وإلا فهو أسطورة كاذبة حين تثبت للعرب عكسه !

ونظرة عميقة فى الرسالة التى بعث بها إلى بنى عمه من آل زياد حين ذموا اتجاهه الاقتصادى المقتر ، تكشف عن غمزات شتى إلى الأولين ، كإشارته إلى أنه إنما يصدر بما نادى به الحسن البصرى من ضرورة الاقتصاد ، وإلى أنه لم يخرج عن مسلك بعض الأئمة السابقين الذى يختمون السّل على اليسير وهو لا يختم إلا على الكثير ، بل يجرؤ فيقول إنه حين يطلب إلى خادمه أن يزيد فى المرق ، لا يخرج عن قوله صلى الله عليه وسلم : إذا طبختم لحماً فزيدوا فى الماء ؛ فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً ! وقد كان عمرو بن العاص — كما يقول — يعمل عمل من يعيش أبداً ، وابن سيرين يدعو إلى الإكثار من المال باستثماره ، والحصين بن المنذر يكنز الذهب ليشرف ، وهشام بن عبد الملك يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً ! وتلقّط أبو الدرداء الصحابى حبات حنطة فنهاه مسرف فقال له : إيهاً ابن العبسية إن من فقه المرء رفقه فى معيشته[1] .

بهذا الأسلوب الساخر يرسم سهل صوراً للعرب يراها ارائى لأول وهلة كبيرة ، فإن تعمقها تبين ما تنمّ عنه من تسفيه لحياة لم تعرف نعمة العطاء الثّرّ ، ولم تكن كحياة الفرس التى قامت على الغنى الواسع .

كل هذا واضح فى الخط الأول ؛ فإن عدوناه إلى الخط الثانى تبدو فيه الكتابة تصويراً لما هو كائن ، لا نَعْدَم الآثار التى تكشف عن حياة مضطربة وعن حضارة هى مزاج من معطيات الفرس والروم والنبط والعرب .

ومرة أخرى نلجأ إلى ابن المقفع ، وفى هذه الحال تجابهنا رسالة الصحابة المشهورة ، وكانت رَصْداً لكل ما اعترى العصر من بلبلة ، وتُعَدّ فى الوقت نفسه صرخة شعوبية ودعوة إلى مجتمع أفضل ، أى إلى إيطوبيا يكون للعجم فيها

(١) راجع البخلاء ٧ — ١٢

حظ موفور ، وإلا فبِمَ نفسر دعوته المنصور إلى اتخاذ أهل خراسان وحدهم سنداً « فإنهم جند لم يُدْرَك مثلهم فى الإسلام ، وفيهم منعة بها يتم فضلهم إن شاء الله » .

ونتبين سياسة الشعوبية التى قامت على التوسل بالرفق والمُمَالأة فى أول الأمر فى قوله « وفى الذى قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأى على مبادرته بالخير فيما ظن أنه لم يُبلغه إياه غيره ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه . ولا يزيد صاحب الرأى على ألا يكون مخْبراً أو مذكراً ، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله . مع أن مما يزيد ذوى الألباب نشاطاً إلى إعمال الرأى فيما يصلح اللهُ به الأمةَ فى يومها أو غابر دهرها ، الذى أصبحوا قد طعموا فيه . ولعل ذلك أن يكون على يدى أمير المؤمنين »[1] .

ثم نتبين تبرم هذه الشعوبية بالأوضاع التى كانت قائمة ، وقد اتخذ ابن المقفع القول بالرأى نقطة البدء لتفسير فوضى الفُتيا والحكم فى البصرة والكوفة وغيرهما . . نتبين ذلك فى السطور التى قرأناها له وكان أولها « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين . . . »[2] .

ولعل هذا ما كان يدفع به دائماً إلى أن يقول بعدم كفاءة القائمين على الحكم . ومن ثم قرر فى كتابه « الأدب الكبير » أنّ على الوالى أنْ يبحث عن دواء لهذه الأدواء التى استشرى شرها ، ولا سيما فيما يمس الأحرار ، والأحرار عنده هم الفرس الأشراف الذين رأينا بشاراً يشير إليهم فى قوله :

تفاخر يا بن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار

قال ابن المقفع « ليتفقد الوالى فيما يتفقد من أمور الرعية ، فاقةَ الأحرار منهم فليعمل على سدّها ، وطغيانَ السفلة منهم فليقمعه »[3] .

---

(١) رسائل البلغاء ٢٠ وما بعدها

(٢) انظر صفحة ٣٠٦ من هذا الكتاب

(٣) رسائل البلغاء ٦٦

ومن هذه العبارة الموجزة نرى إشارةً إلى الطبقية التى عرفها العصر ، وإلى توزُّع القطاع السكانىّ الواحد بين درجات . ولقد نَبَّهَ إلى شرّ العاملين فى المهن الصغيرة ، والهاربين فى البطائح عندما دعا إلى ضرورة الأخذ بيد أحرار الشعوبية !

وأما كتابه « كليلة ودمنة » فَنَقْدٌ سافر لعلاقة الراعى بالرعية ، وهو دعوة صريحة لهدم النظام الذى أقامه العباسيون على أسس من الجبر والتعنت . ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نتخذه ذريعة لتحقيق الإيطوبيا التى يحكم بها الأحرار فى آزاد مرديتهم ، ومعناه أيضًا أن السلطان نفسه يجهل كثيراً من آداب الملوك ، تمامًا كما يجهل القوم حقوقهم ؛ فى باب الأسد والثور يقول « وكان هذا الأسد منفرداً برأيه دون أخذ برأى أحد من أصحابه ، فلما سمع خُوار الثوار — ولم يكن رأى ثوراً قَطُّ ولا سمع خواره — خامره منه هيبة وخشية ، وكره أن يُشْعِرَ بذلك جُنده ؛ فكان مقيمًا مكانه لا يبرح ولا ينشط ، بل يؤتى برزقه كلّ يوم على يده جنده . . .

« وكان فيمن معه من السباع ابنا آوَى يقال لأحدهما كليلة والأخير دمنة ، وكانا ذَوىْ دهاء وعلم وأدب . فقال دمنة لأخيه كليلة : يا أخى ما شأنُ الأسد مقيمًا الا يبرح ولا ينشط ؟ قال له كليلة : ما شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخذَيْن بما أحبَّ وتاركين ما يكره ، ولسنا من أهل المرتبة التى يتناول أهلها كلام الملوك والنظر فى أمورهم ! فأمسك عن هذا واعلم أنه من تكلَّفَ من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار »[1] .

والرمز فى القصة لا تخفى دلالته ؛ فالأسد هو الخليفة ، والأسد يجهل كثيراً من الأمور العادية جدًّا لسكان الغابة كالخليفة الذى يجهل دقائق شئون الرعية ، وبعيداً عن الأسد أقصى كليلة ودمنة مع أنهما ذوا دهاء وعلم وأدب ،

---

(١) كليلة ودمنة ٩٩ ، ١٠٠

فصارا فى الحال التى كان فيها الأحرار ؛ فإذا رغب دمنة إلى أخيه فى أن يكشف للأسد عن الحقيقة ليتحرك ، يؤثر كليلة السلامة ويسأله أن يكف !

وبعد حوار عميق بين الأخوين عن المنازل والأقدار ، وعن الظروف التى ترفع وتخفض ، وعن الدهاء الذى ينبغى أن يتسلح به المرء ليصل إلى أولى الشأن ، وعن اختيار الوقت المناسب للسير فى طريق الملوك ، ينتهى الأمر بأن ينجح دمنة فى إقناع أخيه فى الوصول إلى الخليفة الذى يعجب به ويخلص له[1].

ويطول بنا الأمر لو ذهبنا نناقش الكتاب على هذا النحو ؛ فهو أوضح من أن أدلل به على ما أقول ، من حيث إنه كتاب فى تصوير واقع فاسد ، وفى دعوة إلى مجتمع أفضل .

فماذا عن سهل بن هارون بعد ذلك ؟

عَمَّ تَنَمُّ كتابته فى عرض ما هو كائن وعما ينبغى أن يكون ؟ لقد قلت سلفًا إنه كان كمن يقول بالتقية . لا يجاهر بعداء ، ولا ينادى بثورة ، وكأنما التمس الرَّوْح فى مدافعة مشاعره الشعوبية بالروغان منها والتزهد فيها ؛ فتعهد أن يكون كما كان دمنة صابراً أول الأمر ، ثم عاملاً إذا حانت الفرصة ليصل ، وقد وصل !

وتدل كتابات الرجل — فيما عدا رسالته التى رأيناه يبعث بها إلى بنى عمه — على يقظة تامة إلى ما يريد الخليفة فيصنع . وكان قد شهد مصرع البرامكة الذين صانعهم ، فلما أدخل على الرشيد « ومثلتُ — قال — بين يديه عرف الذعر فى تجريض ريقى ، والتمايد فى طريقى ، وشخوصى إلى السيف المشهور ببصرى ، فقال : إيهًا يا سهلُ مَنْ غمط نعمتى واعتدى وصيتى وجانب موافقتى ، أعجلته عقوبتى — قال — فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : ليفرَخْ رَوعُك وليسكن جأشك ، وتطب نفسك وتطمئن حواسك ؛ فإن الحاجة إليك قرّبت منك وأبقت عليك ، بما يبسط منقبضك ويطلق معقولك ! فاقتصر على

---

(١) كليلة ودمنة ١٠٧

الإشارة دون اللسان ؛ فإنه الحاكم الفاصل والحسام الناصل ، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول :

مَنْ لم يؤدِّ بهُ الجميـ ـلُ فنى عقوبتـه صلاحُه

— قال سهل — فوالله ما أعلمنى عييت بجواب أحدٍ قط ، غير جواب الرشيد يومئذ ؛ فما عوّلت فى شكره والثناء عليه إلا على تقبيل يديه وباطن رجليه ، ثم قال لى : اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ووهبتك ما ضُمّنَتْه أبنيتُه وحوى سُرادقُه ، فاقبض الدواوين وأحص حباءه وحباء جعفر لنأمرك بقبضه إن شاء الله — قال سهل — فكنت كمن نشر عن كفن وأخرج من حبس »[1] .

والقصة كما نرى صورة رائعة لما حدث لكثير من أتباع البرامكة ، وتكشف فى الوقت نفسه عن النغمة التى شاعت عن عدل الرشيد إذا خلّى برمكيًّا يعيش فى كنفه ، وقد تكون هذه النغمة صادقة ، وقد لا تكون ، إلا أنها مع ذلك ترصد لمداراة الظالم بكتمان الأسى على حياة انتهت والتغنى بحياة بدأت[2] !

ومن أجل ذلك نجح سهل عند الرشيد ، ثم نال حظوة أكبر عند المأمون ، وثَمّ بدأ يشيد بعدل الخليفة الجديد ، وبلاغته وحلاوته وجهارته .

هذا الرجل السلبىّ الذى دارى وصانع ، هل أشبهه أبو الحسن المدائنى ؟

إن ما يُروى عن ذلك الكاتب لأكبر من يُغَضّ من قيمته ، غير أنه — كما رأينا — يتعرض لحياة الأمويين بالنقد . وهو الذى نقل عنه الجاحظ خطبة يزيد البتراء[3]، فيما رواه عن المهالبة مدحًا وقدحًا، وفى إحدى المرات ذكر أنه سمع فى سنة ثلاث وخمسين ومائة أعرابيًّا يقول : « أما بعد فإنا أبناء سبل وأنضاء طريق وفل سنة ، تصدقوا علينا ؛ فإنه لا قليل مع الأجر ،

---

(١) أمراء البيان ١٦٩ ، ١٧٠والحباء (بكسر الحاء) العطاء بلا جزاء

(٢) راجع البيان والتبيين ١ : ٧٧ ، ٩١ ، ٢١٦

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٥٨

ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ! أما والله إنّا لنقوم هذا المقام وفى الصدر حزازة وفى القلب غصة »[١] .

فيقدم قطاعًا خطيراً من حياة البصرة يتعرض فيه البدو للمهانة ، بل يكشف به عن التفكك الذى أصاب علاقات العرب بعضهم ببعض . وفى رواية أخرى يعرض قطاعًا آخر فيقول : « وَفَدَ عبيد الله بن الحسن الهاشمى على المهدى معزيًا عن المنصور ومهنئًا بالخلافة ، فتكلم بكلام كان قد أعدّه أعجب الناس به واستحسنوه فبلغه ذلك ، فقال لشبيب بن شيبة : إنى والله ماألتفت إلى هؤلاء ، ولكن سل أبا عبيد الله[٢] عما تكلمت به ! فسأله شبيب فقال له : ما أحسن ما تكلم ، ولكنه لم يتعد بكلامه أن أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان[٣] ، فلقّح بينهما كلامًا ! فأخبر شبيب عبيدَ الله بذلك ، فقال : لله أبوه ، فوالله ما أخطأ حرفًا ، ولا تجاوزت ما قال »[٤] .

فالكاتب يعيش فى الماضى غالبًا ، وعن طريق خوضه فيه شنع على العرب فكان واحداً من الذين أسهموا فى التشكيك بالعرب الأولين وبتراثهم وبدولة بنى أمية بصفة خاصة .

* * *

وبعد . . فقد ينال من هذا المنهج دارس ، ويرى لهؤلاء الكتاب فضلاً لم أره ! وفى هذه الحال لا أملك إلا أن أقول قبل أن أنتقل إلى الشعر : ليس يغنى العرب الدفاع عن هؤلاء الموالى ، وليس يطعن فى تراثنا طعنى أنا فى موقف واحد كابن المقفع أو غيره ؛ فى إطار الشعوبية وصل قسم كبير من ماضينا ، وعلينا نحن أن نناقش حقيقة هذا الماضى بروح تخالف روح أى متعصب للعرب على غير أساس ، كما فعل — على سبيل المثال — محمد كرد على فى « كنوز الأجداد » و « أمراء البيان » .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٨٠

(٢) هومعاوية بن عبد الله بن يساروكان وزير المهدى ورئيس دواوينه سنة ١٥٩ هـ .

(٣) انظر صفحة ٣١١ من هذا الكتاب .

(٤) الوزراء والكتاب ١٤١ .

ب ـ فى الشعر

تصوير الواقع الشعرى للعصر :

سئل الأصمعى عن بشار ومروان بن أبى حفصة أيهما أشعر فقال : بشار ، وفى معرض تعليله قرر أن « مروان سلك طريقًا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدّمه وشاركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقًا لم يُسلك ، وأحسن فيه وتفرّد به . وهو أكثر تصرفًا وفنون شعر ، وأغزر ، وأوسع بديعًا . ومروان لم يتجاوز مذهب الأول »[1] .

ومعنى ذلك — بغض النظر عما يتصل بالمقارنة نفسها — أنه كان ثمة مذهبان ، أحدهما للأوائل رأينا فيه الفرزدق وجريراً وأضرابهما يحتذون نمطًا جاهليًّا ويقيمون نُصبًا من موروث عتيد ؟

ولو قد عَنّ لنا أن نربط هذا العمل بأصل الشعراء عامة ، لمسنا كيف أن العصر العربى الخالص لم يدن إلا لشعراء عرب خلص . فلا نكاد نتقدم ربع قرن فى المائة الثانية الهجرية حتى يطلّ الموالى ، وقد أثرت فيهم علاقات جديدة وأسباب حضارية مختلفة .

وكان لا بدّ أن يختلف الأمر ، ويحيد القصيد عن مذهب الأوائل . ويشكل من ثَمّ مذهبًا آخر سمتُه منذ الآن مذهب الأواخر ، على أساس أن هذا العصر — حتى ظهور جيل أبى تمام — نهاية مرحلة نتوقف عندها . غير أن النتائج لم تكن واحدة عند أعداد الشعراء الكبيرة ؛ فلقد ظل منهم من نستطيع أن نجعله مع مروان ، وكان الأصمعى قد عدّهُ « أمدح الملوك »[2] مشيراً من بعيد أو من قريب إلى أن المدح كان بعضَ مذهب الأوائل ، وربما

(١) الأغانى ٣ : ٢٥

(٢) السابق ٣ : ٢٤

استعنا بابن قتيبة فى إضافة الخطوط الأخرى لهذا المذهب[١] .

والحقيقة أننا من الناحية العملية لا نستطيع أن نقسم الشعراء هذا التقسيم ، إنما نستطيع أن نقسم قصيدهم ، لأن الشاعر الواحد كان يصدر عن أصلين مختلفين ، أو كان الموضوع يفرض عليه النمط الذي يقول فيه ؛ فبشار مثلاً إذا تحدث إلى الملوك كان أكثر تمسكًا بمذهب الأوائل من مروان « فإذا خلا إلى نفسه وأصحابه كان الغَزِلَ الحرَّ الطليقَ الذى يجور بفنه على كل القيم الكلاسيكية المتوارثة ، وقل مثل ذلك عن أبى نواس ، ثم قله عن أى شاعر اضطرب فى عصر التجديد !

القسمة إذن قسمة شعر ، لا قسمة شعراء ، وأعجب ما فى الأمر أن هذا الشعر الذى قيل بعيداً عن الملوك وبعيداً عن المجالات الرسمية ، هو الشعر الذى مثَّل معظم العصر ، ليس فى البصرة فحسب وإنما فى خارجها أيضًا ، ولم يكن الأمر للصدف أن يمثل الاتجاه الإسلامىّ الجديدَ شعرٌ بصرى .

ولقد ساعد فى الابتعاد عن روح القديم ما رأينا من تطوّر الحياة الاجتماعية قبلُ ، وما صاحب ذلك من وقوف الناس على مذاهب جديدة فى الفكر وفى العيش . حتى ليظهر واحد كالنظام يفكر فيحسن التفكير ، ويدافع عن الدين فيوفق أو لا يوفق ، ثم ينقلب إلى اللهو ساعات فيعرض للخمر والغلمان والقيان !

يصور أبو الفرج مثل هذه الحياة ، ويقف عندها ابن المعتز ، ويثبتها أبو هفان ، ويجمع كثيرون على أنها كانت خلابةً تختل ؛ وعلى أنها كانت شتى أهواء ولذائذ وعبث .

وطبعى أن الشاعر الذى كان يصدر عما صدر عنه مرة بن محكان أيام الفحول وهلالُ بن الأسمر من بداوة وخشونة ، يكون بعيداً عن روح

---

(١) وذلك فى حديثه عن المنهج الفنى الذى ينبغى أن يسير عليه الشاعر ؛ فالاستهلال استعبار وذكر دِمَنٍ ثم يشبب ليستوثق من الإصغاء إليه ، ويعقب بإيجاب الحقوق ، فتكون الرحلة بعد ذلك وسرى الليل وحر الهجير للاختتام بالمديح (الشعر والشعراء ٢٠) .

العصر . بل مثل هذين كان غريبًا — نوعًا ما — فى أيامه التى عاشها ، وإلا لما اجترأ الفرزدق على أن يهبط بذى الرمة عن مستواه هو الحضارىّ والفكرىّ .

والمثير حقًّا أن ذا الرمة كان يتمسك بالقديم — وهذا ما كرّه فيه الفرزدق — وهو برغم ذلك يخطئ فى وصف الناقة حتى قال الأصمعى عنه « لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيراً من شعره ، فكان ذلك خيراً له »[١] ، وكان قد قال عنه مرة : « قد أكل البقل والمملوح فى حوانيت البقالين حتى بشِم »[٢] حين سمعه يستبدل بكلمة « زوج » الأنثى « زوجة » فى بيته :

أذا زوجة يا لمصر أم ذا خصومة أراك لها بالبصرة العامَ ثاويا

فأبعده عن البادين !

نقطة البدء إذن فى تصوير الواقع الشعرى لهذا العصر هى الابتعاد عن البادية وشخوص البادية ولغة البادية .

ومن أجل ذلك يجب أن أذكر أن البادية فى هذا العصر — لا سيما إذا كانت بعيدة عن البصرة — أصبحت شيئًا آخر ؛ فقد بهتت صورتها واختلطت معالمها وخرب منها ما كان عَمَاراً ، والناس فيها غلاظ قساة كل بضاعتهم هذه الحصيلة الشعرية التى أعانت على جمع اللغة وتدوينها .

يروى عن أبى نواس أنه قال : « بكرت إلى المربد ومعى الوالى أطلب أعرابيًّا فصيحًا ؛ فإذا فى ظل دار جعفر أعرابى لم أسمع بشيطان أقبح منه وجهًا ولا بإنسان أحسن منه عقلا ، وذلك فى يوم لم أر كبرده برداً ، فقلت له : هلا قعدت فى الشمس ؟ فقال : الخلوة أحبّ إلىّ ! فقلت له مازحًا : أرأيت القنفذ إذا امتطاه الجنىّ وعلا به فى الهواء ، هل يحمل القنفذ الجنى أم الجنى يحمل القنفذ ؟ قال : هذا من تكاذيب الأعراب »[٣] .

---

(١) الموشح ١٨٥

(٢) الموشح ١٧٠ وبشم : أتخم .

(٣) الحيوان : ٧٨٦

فالبادية إذن فيها هذه الشخوص الغريبة ، وفيها الآخرون الذين يكذبون ، غير أنها ظلت منتجعاً لكل مقلِّد . وفى أخبار بشار أن خلف بن أبى عمرو بن العلاء وخلفا الأحمر كانا يأتيان بشاراً ويقولان له : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فينشدهما الجديد من شعره ويكتبان عنه ، وفى أحد الأيام قالا له : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى سلم بن قتيبة ؟ فأجاب : هى التى بلغتكما ! قالا له : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ! فقال : نعم ، بلغنى أن سَلْماً يتباصر بالغريب فأحببت ان أوردَ عليه مالا يعرفُه ! ثم أنشدهما القصيدة وكان مطلعها :

بكّرا صاحبىّ قبــل الهجير إن ذاك النجــاحَ فى التبكير

فقال له خلف الأحمر : لو قلت يا أبا معاذ مكان « إن ذاك النجاح » بكرا فالنجاح فى التبكير ما كان أحسن ! فقال بشار : إنى بنيتُها أعرابيةً وحشيةً فقلتُ إن ذاك النجاحَ ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولَّدين ، ولا يشبه ذلك الكلامَ ولا يدخل فى معنى القصيدة[1] .

النص عظيم الدلالة على أكثر مما نريد ، ويرسم ما كان يجنح إليه الشعراء فى هذا العصر ، ويقفنا على يقظة أمثال بشار إلى نوعين من الكلام الفنى ، وهذان النوعان هما ما رسم صورة العصر على نحو ما سنرى بعد .

المبنى :

وإذا كنت أبدأ بالتحدث عن بناء القصيدة ، فلأن أكثرنا يؤمن بأن الشكل يلفت أول ما يلفت ، وأهم مكوّن من مكوّنات الفن بصفة عامة[2] ، وإن كنت أحب أن أستبدل البصيرة والحدْسَ بالرؤية ، فيكون من ثَمَّ التعمقُ المنشود !

---

(١) الأغانى ٣ : ١٩٠

(٢) Read, the Meaning of Art; 25.

وقد يكون من حقى أن أذكّر بالمقدمات التى استفتحت بها هذا الكتاب ، حتى إذا ظن الظانُّ أن الشكل الجديد ليس ابن البيئة الجديدة قلتُ : وهل كان غير البصرة يستطيع أن يدمر الأطُرَ الموروثة كما دمرتها البصرة ؟

أما دمشق فالمحافظة على وَجْه الإطلاق ، وأما الفسطاط فشىء لا يذكر فى حين مالت الكوفة بهواها مع جارتها اللدود مرةً ومع دمشق مرة أخرى .

ولأبدأ ببيتين لبشار ، ربما أنشدهما بعد أن ثار فنيًّا على الشعراء الأولين ، فى نحو له :

لم يطـــل ليلى ولكنْ لم أنَمْ ونَفَى عنى الكرى طيْفٌ ألم[1]

أو ربما أنشدهما قبل هذه الثورة ، فإننى لا أحسب الأمر يختلف كثيراً ما دام يدل على إظهار الانحراف الذى أعنى ، هذان البيتان هما :

كيف يبكى لمحبس فى طلول من سيفضى لحَبْس يوم طويل
إن فى البعث والحساب لشُغْلا عن وقوفٍ برسم دارٍ محيـــل

وبادئ ذى بدء نحب أن نسقط الفكرة الأخلاقية السامية التى يصدر عنها ، لأنه كان ابن البصرة التى كفرت بكثير من القيم . فإن فعلنا لم يبق إلا أن نذكر استفتاحات قصائده بالتجهز للرحيل وبالتلذذ بريق سُعْدَى وبالتعلل بوَصْل عبدةَ والتباكى على ذهاب الشباب ، فتكون الحصيلة شيئًا آخر ربما كان من الأسباب التى جعلت ابن قتيبة — فيما بعد — يطالب شعراء عصره بضرورة الاستعبار على الدمن !

بشار إذن — وهو زعيم المجددين بإجماع — يتخلص من البكاء التقليدى ، فيكون ذلك مما يبعد بالمبنى الجديد عن أن يستقيم مع القديم على سَنَنٍ واحدٍ ، وكان لا بدَّ أن نتقبل نَعْى أبى نواس من بعده على المقدمة الجاهلية والإسلامية خطوةً من الخطوات التى بدأها بشار ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن بيت النواسى :

---

(١) الأغانى ٣ : ١٥٠ ، ١٥١

قل لمن يبكى على رسْمٍ دَرَسَ واقفًـــا ما ضَرّ لو كان جلسْ

وبيته :

دع ذا الرسم الذى دثرا يقـــاسى الـــربح والمطـــرا

وبيته :

مالى بدارٍ خلتْ من أهلها شُغُل ولا شجانى بها شخصٌ ولا طلل

نستطيع أن نقول إن أبياته تلك كانت صدى للجديد الذى عاشه ، وعاشه كلُّ عصره وكادت تكون قاعدة عامة يأخذ بها الكبار والصغار فى الشعر الرسمى وفى الشعر العابث . وكان على خلف الأحمر — وهو من هو فى فَهْم القديم — أن يستفتح بوصف الأفعى فيقول :

أفْعَى رَخُوف العين مِطراق البُكرْ
داهيـــةٌ قد صَغُرَتْ من الكِبَرْ[1]

كما يقول رؤبة :

فِحِّى فلا أفْرَقُ أنْ تَفِحِّى وأن تُرَحِّى كرَحى المرَحِّى[2]

ويضرب أبو الشمقمق مروان بن محمد بالاستفتاح التقليدى عُرْض الحائط فيقول مثلاً :

إنّ رياح اللؤم من شحِّه لا يطمع الخنزير فى سَلْحِه[3]

ويقول :

وهـــذا جميل على بغـــله وقد كان يعـــدو على رحله[4]

---

(١) الحيوان ٤ : ٢٨٦ والرخوف : من رخف بمعنى استرخى ، مطراق البكر : أى أن الأفعى تطرق فى الغدوات .

(٢) نفسه ٤ : ٢٣٢ ، وأفرق : أخاف ، المرحى : الذى يسوى الرحى ، ويقال رحت الحية ترحو ، وترحت تترحى إذا استدارت .

(٣) السابق ١ : ٣٥٥

(٤) السابق ٤ : ٤٥٤

وفى مدح هارون الرشيد ينشد :

عاد الشمقمق فى الخســاره وصــبا وحَنَّ إلى زراره[١]

وفى هجاء مساور الكاتب الذى انحاز إلى البرامكة فى التحوّل الذى أصاب الناس فى عهد الموالى يقول :

أنا بالأهواز جــارٌ لعُمَرْ لعظيم زعموا ضخم الخطــر[٢]

وهكذا يطول بنا الأمر لو ذهبنا نتقصّى مطالع القصائد فى عصر التجديد . ولئن زعم زاعم أن التحرر من المقدمات التقليدية وقع من قديم ، قلتُ : أجل لكن فى حدود ، وأما هاهنا فبصورة عامة يُلح عليها إلحاحًا ، وبتعمُّد أحيانًا مبعثه نار تلهب صدور الموالى . بل لقد جرؤ اللاهون على استفتاح القصيد بتسجيل معالم مجونهم وزندقتهم ، فتم بذلك تحطيم أول مظهر من مظاهر القديم .

* * *

فإن انتقلنا إلى اللفظ رأينا القول فيه يطول ، غير أنى أؤكد أنه على ما ظهر عند بشار — وغير بشار — لم يكن يستخدم للعبارة عن المعنى فحسب ، وإنما كان يقصده لذاته ؛ فقد أصبح خلقًا فنيًّا ، ودل على ذلك زخرفته بالبديع حين تقدمت الحياة ، وأصبح الشعر الذى كان يجرى فى أول أمره غيرَ مقيد بشىء ، شعراً يقتسر فيه الشاعر جمال الشكل اقتساراً ، حتى إنه لم يعد المهم أن شيئًا يقال جزلا قويًّا ، وإنما المهم أن يقال فى صورة مزينة ، وإلا فلتكن أدوات هذه الصورة سهلة رقيقة .

وتحضرنى هنا ملحوظة الصولى وردت فى رسالته إلى مزاحم بن فاتك قرر فيها قائلاً : « اعلم أعزّك الله أن ألفاظ المحدثين مذ عهد بشار إلى وقتنا هذا

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ٦٤

(٢) الوزراء والكتاب ٢٣٢

كالمتنقلة إلى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق »[١] ، برغم أن القاضى الجرجانى يرى « أن ملاك الأمر فى اللفظ الجديد- ترك التكلف » وأن أبا نواس — وفى رأيه أنه ما تكلف شعراً قط — يُعَدُّ سيد المطبوعين[٢] ، ويبدو أن الجرجانى كان يعنى بالتكلف تعسر الشاعر فى وضع كلماته موضعها .

تحضرنى هذه لتؤكد ما ذهبت إليه ، ولتؤكد كذلك أن التغيّر الذى أصاب الشعر شمل أداة الشعر ، وإن يكن هذا التغير قد بدأ طبعيًّا دون أن يشعر به أحد ، فلم يحاربْهُ إنسان على ما سنرى فى القرن الثالث .

ومرة أخرى نقصد بشاراً على ألا نُعِدَّه أول من قام بعملية التغيير الشكلى[٣] وعلى أنْ نعدَّ أنَّ هذا التغيير صاحَبَهُ تغيير آخر فى اتجاه الشعر العام ، ويستهدف التعبير المباشر عن حاجة الشاعر فى شعبية واقعية من غير ما تقيُّدٍ بالتقاليد الموروثة . فلم يَعُدْ الشعر كله يُعْنَى بتصوير طبقة معينة من الناس ولم يَعُدْ كلُّه يقال فى طائفة بعينها ، وإنما اتسع باتساع الحياة الجديدة فَقُصِدَ به الجميع ، رجل الشارع ورجل القصر ، السوق والأمير على حدٍّ سواء . روى إسحاق بن ثابت العطار قال : « كنا كثيراً ما نقول للسيد ، يريد السيد الحميرى : مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ قال : لأنّ أقولَ شعراً قريبًا من القلوب يلذُّه من سَمِعَه خيرٌ من أن أقول شيئًا متعقِّداً تضل فيه الأوهام »[٤] .

والحميرىّ فى الحقيقة ممن اشتركوا مع بشار فى تكوين الفن الجديد الذى طوّر الشعر تطوّره المعروف عند أبى نواس ومسلم وأبى العتاهية ثم أبى تمام . أقول إن الحميرى فى الحقيقة من المجددين ، بل هو وبشار أشعر المولدين[٥] .

---

(١) أخبار أبى تمام ١٦

(٢) الوساطة ٣٠ ، ٧٦

(٣) يحسن هنا مراجعة العمدة ١ : ١١٠

(٤) الأغانى ٧ : ١٠

(٥) نفسه ٧ : ٥

لقد عدّل السيد الحميرى عن طريق القدماء فى إصراره على اختياره الألفاظ الحسنة ، وكان ذلك قوام مذهبه[١] ، واحتذاه فيه الشعراء المجددون ومنهم بشار فى جزء من شعره وإن لم يحتذه فى الجزء الآخر ، كما احتذاه أبو نواس ولم يحتذه حيناً آخر ولا سيما فى طردياته ، واحتذاه العطوى ومحمد بن مناذر وسلم الخاسر والخليع طوراً وعدلوا عنه طوراً آخر . كانوا جميعاً يقصدون إليه فى شعرهم الشعبى ، وكانوا يحرصون على تركه فى شعرهم الرسمى . كانت هناك ثنائية تكون شخصية الشاعر الجديد ، وكان للشاعر من هنا شعران : شعبى ورسمى ، والشعبى أصدق وأفعل فى القلوب من الرسمى .

على أن السيد الحميرى وقد كان من جيل بشار ، يذهب إلى بشار نفسه وكان يمدح فيقول له :

أيهـا المادح العبـاد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العبـاد
فاسـأل الله ما طلبت إليهم ... وارجُ نفـع المنزل العـواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه ... وتسمى البخيـل باسم الجـواد

وعرفه بشار وعرف اتجاهه وقال : « لو شاركنا فى مذهبنا لتعبنا»[٢] لنعرض عن ذلك الشاعر إلى شعراء أدركوا واعين تأثير الشعر غير المتكلف ، أىّ الشعر الذى يجرى رُخاءً بلا التواء ، ومالوا به عن التغميض والتوعير .

كانت السهولة التى اتصف بها الشعراء قَبْلُ فردية ، ولكنها أصبحت فى هذا العصر جماعية مستهدفة ، أصبحت مذهباً أو اتجاهاً عاماً ! وتبع ذلك بعد عن المثل الجاهلى الذى قررناه قاعدة فى العصر العربى الخالص ، كما تبعه ضعف عام فى النسيج اللغوى ، مع ميل إلى محسنات لفظية كان الجناس فيها أكثر ظهوراً . يقول بشار مثلاً فيجانس تجنيساً ناقصاً :

لم يطل ليل ولكن لم أنم ... ونفى عنى الكرى طيفٌ ألم

---

(١) كان السيد أسمر تام الخلقة أشنب حسن الألفاظ (الأغانى ٧ : ٣) .

(٢) الأغانى ٧ : ٥ .

ويقول وقد أحب فاطمة الجارية :

درة بحرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدررْ
عجبت فطمةُ من نعتى لها ... هل يجيد النعتَ مكفوف البصرْ

فنلحظ شيئًا من الضعف فى النسيج اللغوى ويحذف ألف « فاطمة » ويميل فى سائر القصيدة إلى الأناقة والرشاقة حتى يختم بأحلى بيت وأعذبه :

أيها النوّام هبوا ويحكم ... واسألونى اليوم ما طعم السهر[1]

وقال فى همزية طويلة له :

كأنما أقسمتَ لا تبتغى ... برِّى ولا تَحْفلْ بإيتائى[2]

فإذا لم تكن « تحفل » محرفة عن « تحنى » يكون بشار مخطئًا لأنه جزم بغير جازم ، ثم هو يستعمل كلمة « زَرَاء » فى موضعين دون أن يكون لها وجود فى اللغة[3] كما استعمل فى رجزيته الدالية المشهورة « المُقْوَدّ » كالمعوج من الفعل « أقْودّ » وهو ليس موجوداً ، ويقول فيما يقول :

لقد ذكَرْتُك والفَوقانُ يأخذنى ... وما نسيتُك بين الكأس والكُوب

مشتقًا من « الفُواق » مصدراً دالاً على الاضطراب كالغليان ، وسكنه للضرورة[4] ثم هو يجمع فى شعره « الحبيب » بحِباب كصِحاب[5] ولا ذكر لهذا الجمع فى كتب اللغة ، ثم ينفرد أحيانًا باشتقاقات غريبة كأن يقول :

فلا يأتنا منكَ الحديثُ لَذَاذَةً ... لأصْولة ، لا يَأْمَنْ الهولَ راكبُهُ

يقول شارح الديوان « وكأنه اعتبر قولهم : جمل صؤول ، ثم نزل صؤول

---

(١) الأغانى ٣ : ١٧٢
(٢) ديوانه ١ : ١٣٠
(٣) السابق ١ : ١١٥ ، ١٢٨ ؛ وقد تكون الزراية أى المصيبة ، أو قد تكون زراء (بكسر الزاى) بمعنى العتاب .
(٤) السابق ١ : ١٩٥ والفواق : اسم للريح التى تعترض فى الصدر عند الاحتضار ونحوه .
(٥) السابق ١ : ٢٠١ ، ٢٤٨

منزلة الاسم فجمعه على أصْولة ، ثم أطلقه على الواحد للمبالغة[١] .

هكذا يلين النسيج اللغوى عنده ويظهر بصورة مطردة حتى فى شعره الرسمى ، ولا ينسى البديع فيقول فى أرجوزته التى يمدح بها عقبة بن سلم :

يا طلل الحى بذات الضَّمْد ... بالله حَدِّثْ : كيف كنت بعدى
أوحشتَ من دعد ونُؤى دعد ... بعدَ زمان ناعم ومَرْدِ
عَهْداً لنا ، سَقْياً له من عهد ... إذ نحن أخيافٌ بما نؤدى
يخلفن وعداً ونفى بوعدِ ... فنحن من جهْد الهوى فى جهدِ
نلهو إلى نَوْرِ الخُزَامى الثَّعْدِ ... فى زاهرٍ من سَبِط وَجعد[٢]

ويقول فى قصيدته التى يمدح بها المهدى ويفخر بخراسان :

تَرى النَّدى والردى من راحتيه لنا ... لمَّا جرَى الفيضُ محْفوزاً بإمداد
سِرْ غَيْرَ وانٍ ولا ثانٍ على شَجَن ... إنَّ الإمامَ لمن صَلَّى بمرصاد[٣]

ويقول فى صاحبة له كانت واعدته ثم اعتذرت :

يا ليلتى تزداد نُكرا ... من حُبِّ من أحببتُ بِكرا[٤]

ويقول غير ذلك ، فإذا هو يتَحرَّى الجناسَ ويطابق ويقابل ويطلب الاستعارةَ ، ولا يستطيع أن يستر شخصيته وراء تكلفه الغريب فى نَحْو أرجوزته .

وندع هذا الشاعر إلى سَلْمٍ الخاسر ؛ فنجد الآراء تجمع على أخذه مذهب بشار واحتذائه ، يروى أحمد بنُ صالح فى الأغانى أنه — أى سلم — كان تلميذاً من تلاميذه يروى له شعره ، ويقول أبو الفرج « عنه أخذ ومن

---

(١) ديوانه ١ : ٢٤٤ وأصولة : صفة للمبالغة مشتقة من صؤل البعير إذا أخذ يهجم على الناس ويقتلهم ، فهو صؤول .

(٢) السابق ٢ : ٢١٩ ورويت « ذات الصمد » وهما مكانان ، أخياف : مختلفون ، الثعد : الرطب ، السبط : المسترسل الشعر ، الجعد : القصير الشعر .

(٣) السابق ٢ : ٣٠٧ ومحفوزاً : مصبوباً من ورائه ، الإمداد : الإعطاء ، صلى : تأخر .

(٤) الأغانى ٣ : ١٥٥

بحره اغترف وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر » ويعترف سلم نفسه بهذه التلمذة فكان يقول إنه تبع لبشار ولا ينطق إلا بفضل منطقه[١].

فإذا رحنا نستقصى شعره وجدنا فيه تلك الملامح التى يعرفها النقاد فى شعر بشار . ومذهبه نتيجة هذا التطور الذى مرت به شخصية بشار ، وأثره من تكوين بشار ، وأسلوبه الذى يمتاز بسهولة المأخذ ويجنح إلى البساطة ، هو هو أسلوب بشار !

ونعدو الرجل إلى شاعر آخر عاصر أبا نواس فى البصرة ، وزار معه بغداد وتعصب مثله للأمين ثم يعود إلى البصرة ليُقْضى بها . أما هذا الشاعر فهو الحسين بن الضحاك الذى كان يغير النواسى على معانيه[٢]، وقراءتنا لشعره تشعرنا أنه كان يعمد إلى البديع كما كان يعمد إليه بشار ، وكما كان يعمد إليه أبو نواس لا كما كان يعمد إليه مسلم بن الوليد ؛ فهو يحرص على الطباق والجناس ولكن من غير أن يتكلف ، وهو يكلف بالتشبيه والمجاز ولكن دون ما إسراف ، وفى عناية وأناقة ، والألفاظ بَعْدُ جيدة الاختيار . ولنقرأ له على أية حال الأبيات التالية ، فسنراه يقول :

أىّ ديباجة حُسْنٍ هَيَّجتْ لوعةَ حُزْنى
إذْ رمانى القَمَرُ الزا هرُ عن فَتْرة جفْنِ
بأبى شَمْسُ نهارٍ بَرَزَتْ فى يَوْم دَجْنِ
تركتنى بين ميعا دٍ وخُلْف وتجنٍّ
ما أرانى لى من الصبـ ـوةِ إلا حُسْنُ ظنّى
أستعيذ الله من إعـ ـراض مَنْ أعْرَضَ عنّى[٣]

ولا يختلف أسلوبه بما فيه من « بديع » عن أسلوبه فى الأبيات التالية التى

---

(١) الأغانى ٣ : ١٤٨ ، ١٩٩ — ٢١ : ٧٣ ، ٨٤ .

(٢) راجع الأغانى ٦ : ١٦٥ .

(٣) السابق ٦ : ١٦٨ ودجن : الغيوم المطبقة المظلمة .

يذكر فيها حبيبة له اسمها فِتَن [١]:

لا تَلمْنى على فِتَنْ إنها كاسْمِها فتَن
فإذا لم أهم بها فبِمن . . لا بمَن إذن
أين لا أين مثلها فى جميع الورى سكن

وهكذا نحس شدة قُرْب الخليع ممن سبقه نصاعةً ورقةً وحسنَ ديباجة . ورجل كالخليع ذوقًا وفنًّا وشعراً وميلاً إلى الأناقة ، إذا قال الشعر صدر عن قوة فى الطبع وبُعْدٍ عن التكلف ليحقق رسالة كبيرة فى الشعر . . رسالةَ أن يكون قريبَ المأخذ ، يصوّر نفوس الناس وحياتهم فى غير اصطناع للغرابة .

وأما أبو الشمقمق — وهو أحد الشعراء الصعاليك الذين عاصروا بشاراً وأبا نواس — فالجاحظ يهتم بشعره ، ويرصد له برغم ما فيه من ابتذال ولين ، ومما رواه له قوله يخاطب أحد السنانير :

قلتُ : اصبرْ يا نازُ رأس السنانيـ ـرِ ، وعللتهُ بحُسْن مقاله
قال : لا صبر لى وكيف مقامى فى قفارٍ كمثل بيد تباله
ثم ولى كأنه شيخ سوء أخرجوه من محبس بكفاله [٢]

ونلحظ أن « بديعه » يتخذ صورة أخرى مخالفة لما رأينا ، فهو فيما عدا اهتمامه بسهل الألفاظ العربية يستعمل ألفاظًا كانت لا شك تجرى بها ألسنة العامة ، وتلك خطوة هامة فى تطوير الشعر ، فالناز كلمة فارسية معناها السنور ، وهو يصر عليها فى أكثر من مقطعة شعر ، كما يحرص على استخدام المتداول من كلمات الفرس فى البصرة كما فعل أبو نواس وبشار ، ولنسمع الشاعر الأخير يقول — قبل أن نسمع إلى أبى نواس — مستخدمًا كلمتين مولدتين فى لسان أهل البصرة :

أحنّ إلى محاسن أم بكر ودون لقائها دُكْح ونكح [٣]

(١) الأغانى ٦ : ١٨٠
(٢) الحيوان ٥ : ٢٦٧
(٣) ديوانه ٢ : ١٤٩

وأما أبو نواس فيكثر فى شعره استخدام أسامى الزهور والخمور بالفارسية ويصر فى أحايين على أن تتسم صورته بأدوات غير عربية ، فنجد هنا وهناك الكرباس والطرجهار والمزمزم والغيوق والجردق[١] . بل يتبسط فيستخدم ألفاظ العامة كالبرمة والهاون وايش بمعنى أى شىء[٢] .

وأبو شراعة — برغم اصطناعه البداوة فى مذهبه كما يقول أبو الفرج — كان لايجد حرجاً فى استخدام الألفاظ الفارسية كأن يقول :

تدب خلال شئون الفتى دبيب دبا النملة المنتعش
إذا فتحت فغمت ريحها وإن سيل خمارها قال: خش

وخش كلمة فارسية تفسيرها طيب[٣]

ويقول أبان اللاحقى :

يقول العبدُ فى الكندو ج يا مولاى ذا أحد

والكندوج كلمة غير عربية أصلها « الكندو » أى المخزن ، وعربها أبان بإضافة الجيم لها[٤] .

وإذا عدنا لأبى نواس ، رأيناه — من ناحية أخرى — يشبه بشاراً حين يخطئ فى اللغة كما أخطأ ، يقول مثلاً :

لو رأى فى الجو صدعاً لنزا حتى يموتا
أو رآه فوق سقف لتحولْ عنكبوتاً[٥]

جازماً « تحولْ » بلا جازم !

فإن قوّمنا ذلك كله لم نجد إلا أن نقول إن الظاهرة العامة عند الشعراء كانت

---

(١) راجع ديوان أبى نواس ٥٣٣، ٧٣ ، ١٩٣ ، ٥٢١ ، ٥١٥ (ط . مصر ١٩٥٣) .
(٢) ديوانه ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ١٨١
(٣) الأغانى ٢٠ : ٤٠
(٤) الصولى فى كتاب الأوراق ٣٥ (ط . الصاوى ١٩٣٤) .
(٥) أخبار أبى نواس ١١٠

ضعف نسيجهم اللغوى[١] ويبدو أنهم لم يهتموا إلا بتحقيق الشعبية التى يستهدفونها فقالوا كل لفظ تدور به ألسنتهم، وأكثر أبو نواس بالذات حتى قال فيه صاحب الوساطة « وقد أفرط أبو نواس حتى استعمل زنمرده وبازبنده وباريكنده وعلى أية حال لنسمعه من جديد يقول[٢] :

ليتنى فى بيت ورد منقعًا فى آب زرد
فألاعبْها بنرد بين خيرىّ وورد
وأجاهرها بفرد وَحْىَ مَقمورٍ بِدُرْدِ

لقد قال هذا الشعر للرشيد نفسه وكان طلب منه أن يقول فى « وحىٍ مقمور بدرد »[٣] ونلحظ أنه يكثر فيه من الكلمات الفارسية ، ويلحن فى البيت الثانى ويشتق فعلاً من الكلمة الفارسية « جُهار » ويعنى فى البيت الأخير أنه يريد أربعة أربعة فذلك وَحْى كل إنسان مغلوب فى القمار ويأتى بفَرد أربعة واحدة !

ولكن هذا الشعر مهما يكن أثره فى الدلالة على تصوير الحياة البصرية فإنه ليس كثيراً فيما بين أيدينا ؛ فلقد عدلت عنه أكثر الأثبات واهتمت بشعر الخاصة ، ترويه وتقف عند معانيه ، وتقلب وجوه الرأى فيه .

إن شيئًا لا يمكن أن يصد تيار الحياة العاتى ، والبصرة المدينة الثائرة الفائرة المفكرة لا تنى تتقدم ، وتصطرع الأفكار فيها . فيظهر أثر ذلك فى كل نتاج تطلع به العقول . حتى الشعر ، فقد حفل بألفاظ المتكلمين واصطلاحاتهم وكان من المعتزلة أدباء وشعراء عملوا على « تعقيل » الشعر إن جاز أن يقال هذا عن إقحام العقل على الشعر الجديد . يقول سلمة بن عياش فى جارية أحبها ،

---

(١) لم يعن ذلك قط أن التقعر واصطناع الفصاحة لما يعودا هدف أحد ، فقد كان ثمة كثيرون يغربون ويتقعرون ، أذكر منهم بخاصة زيدبن كثوة الذى أورد له الجاحظ نصاً شديد التعقيد عظيم الالتواء (البيان ٣ : ٢١٧) .

(٢) أخبار أبى نواس ٧٣ وليس لزرد معنى وربما كانت « سرد » أى بارد !

(٣) الدرد : فارسية معناها أربعة أربعة .

وكانت تسمى جوهراً :

ألا يا جوهرَ القلْب لقد زِدْتِ على الجوْهر[١]

ويقول أبو نواس :

وذاتِ خد مورد موهبة المُتَجَرَّد
تأمَّلُ العينُ منها محاسنًا ليس تَنْفَدْ
فالحسن فى كل جزءٍ منها معًا يَتَرَدَّدْ
فبعضُه فى انتهاءٍ وبعضُه يتولدْ[٢]

كما يقول :

يا عاقدَ القلبِ منى هلاّ تذكرتَ حلا
تركتَ قلبى قليلاً من القليل أقلا
يكادُ لا يتجزّا أقلُّ فى اللَّفْظِ مِنْ لا[٣]

ويقول العطوى فى الردّ على هشام الرافضى :

جلَّ ربُّ الأعراضِ والأجسام عن صفاتِ الأعراضِ ولأجسام
برئ اللهُ من هشام ومَنْ قال فى الله مثلَ قول هشام
ما الدليلُ المبين عن حَدَث العا لم أفصحْ به لدَى الأقوام[٤]

والجوهر والعرض والانتهاء والتولد والجزء الذى لا يتجزأ وحدوث العالم ... كلها هذه كلمات تدور على ألسنة المتكلمين فى البصرة، وقد لعبت دورها عند الشعراء المولدين وأعانتهم على رسم بعض صورهم وعلى تحديدٍ طريفٍ من أخيلتهم ، وربما تكون قد أفسدت على الشعراء ماء الشعر كما يقول نقادنا القدماء ، أو ربما تكون قد أفقدته هذه السماحة التى يهمس بها اللفظ المألوف ،

---

(١) الأغانى ٢١ : ٨٦

(٢) أخبار أبى نواس ٩٠ والموهة : الحسن والجمال ، وفى البيان والتبيين (١ : ١٠٨ سندوبى) الأبيات باختلاف ، وروى قوهية بدلا من « موهية » فنسب الحبيبة إلى قوهستان .

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٠٨

(٤) الأمالى ٢ : ٢٣٢

إلا أنها مهما يكن من أمرها أعطته لونًا جديداً .

* * *

ويعنيني بعد ذلك أن أعرض لطريقة صياغة الشعر وتصميم إطاره العام ، وهنا أقول بصفة عامة إن القصيدة ظلت رأسَ الأشكال الشعرية عند العرب إلى هذا الوقت . إلا أنها تأثرت بانتشار ضروب الموسيقى على أيدى الموالى ، ولانت لإيقاع الدفوف التى تتحكم فى حركات الراقصين والراقصات .

وليس من شك فى أننا لا بدّ واجدون — على الأقل — مقطوعات من الشعر يسهل إنشادها فى حلقات الرقص وفى حانات الخمر ، وربما كان بشار أكبر من طوّع قصيده لهذه الحاجة الملحة ، ونجد فى ديوانه عدولاً ظاهراً عن الأوزان المعقدة إلى الأوزان السهلة وعن الطويل منها إلى القصير ، وإن يكن فى كل الحالات يحرص على التفعيلات التى تدور بإيقاعاتها فى القوالب المألوفة .

وهنا يحسن أن نعود إلى ما قررتُ عن عقلية البصريين التى تستقرئ وتقسم وتبتكر ، والتى تأثرت بما اطلعت عليه من تراث الأقدمين من غير العرب . إن الخليل بن أحمد صورة مثالية لهذه العقلية ، وعروضه الذى وضعه جانبٌ من جوانب ميل البصريين إلى الحصر ووضع القواعد . ولكن الذى يعنينا بخاصة أن أقول إن ما اهتَمّ به الخليلُ من زحافات وعلل قد هيأ السبيل إلى التحرر من الأوزان القديمة أو إلى تحريفها ، وانتهى هذا التحريف إلى استحداث أوزان جديدة ، وفى ذلك يقول أبو العلاء عن المضارع والمقتضب اللذين انتشرا فى المرحلة التى نؤرخ لها إنهما ليس لهما أصل فى الشعر القديم مع أن الخليل سجلهما[١] ولم يسجل المتدارك فكانت أوزانه خمسة عشر جنسًا[٢] .

وعلى الرغم من أن الوليد بن يزيد قد اخترع المجتث[٣] فإنه لم يحدث تغير فى أوزان الشعر خلال حكم بنى أمية ، ولكن أثر عن بشار ميله إلى الأوزان

---

(١) الفصول والغايات ١٣٢

(٢) العمدة ١ : ٨٨

(٣) شوقى ضيف فى الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٥٤

القصيرة فى شعره اللاهى ، والذين اتصلوا به كأبى الشمقمق كانوا يحتذونه . حتى هؤلاء الذين نَحَوَا نحواً لم يتهتكوا ، مالوا إلى هذه الظاهرة ؛ فكان سلمة بن عياش مثلاً يقول وغُنِّىَ بقوله[١] :

أظن الحب من وجدى سيقتلنى على بربر
وبربرُ درةُ الغوّا ص من يملكها يجبر

وكان أبان الذى قصر شعره — فى أغلبه — على البرامكة والرشيد لا يصطنع إلا الأبحر المجزوءة أو الأبحر القصيرة ، وسجل له الصولى فى قسم أخبار الشعراء من «كتاب الأوراق» أكثر من أربعين قصيدة ومقطعة ينحو فيها ذلك النَّحْو ، فى حين لم يَرو له من البحور الطويلة إلا القليل ، كما عُنِىَ بتسجيل شىء من مزدوجاته التى شهر بها[٢] .

وفى ذلك الحين يظهر سلم الخاسر ويظل إلى أيام حكم العباسيين ، فيروى شعر بشار ويمدح رجال بنى هاشم ، فيقول فى موسى الهادى :

موسى المطر غيث بكر
ثم انهمر ألوى المرر
كم اعتسر ثم ايتسر
وكم قدر ثم غفر

ويمضى على هذا النمط فى تلك الأرجوزة ، فتكون أولَ تغير يصيب الشعر الرسمى ، ويقول ابن رشيق عنه إنه أول من ابتدع ذلك فى الرجز ، والجوهرى يسمى هذا النوع مقطعًا ورأى أنه ليس شعراً[٣] .

على أن بشاراً نفسه لم يقف دوره عند حدّ اختيار الأوزان القصيرة وإنما

---

(١) الأغانى ٢١ : ٨٦

(٢) عن المزدوجات راجع الأوراق من ٤٦ إلى ٥٢

(٣) العمدة ١ : ١٢٣ وقد مدح المعتضد بعد ذلك بمثله :

أهدى الألم طيف ألم
جاد بفم وملتزم

(ديوان بشار ٢ : ٢١٩) .

روى على نحو مما قلنا أنه قال المزدوج والمخمس ، وفى ذلك يقول ابن رشيق إن بشاراً « كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر[١] » ، وأصبح الرجز عنده ميداناً يظهر فيه براعته اللغوية فى حين كان عند رجاز بنى أمية نوعاً من القصيدة واستحال عند أبى نواس طرداً ، ثم انتهى الأمر إلى أن يكون شعراً تعليمياً فينظم به أبان « كليلة ودمنة » وينظم مزدوجة الصوم والزكاة التى يقول فى أولها :

قصيـــدة الصيام والزكاة نَقْل أبانٍ من فَم الرواة[٢]

على أية حال شهد عصر التوليد تغيراً فى الأوزان الشعرية . وانتهى الأمر إلى استحداث المقتضب والمضارع والمتدارك ، وقد استعمل أبو نواس المقتضب ومن أمثلته :

حامـــلُ الهوى تَعِبُ يَسْتَخِفُّـــه الطَّـــرِبُ
إنْ بكى يَحِقُّ لَهُ ليس مـــا بـــه لعِبُ
تضحـــكينَ لاهيـــةً والمحـــبُّ ينتَحِبُ
تَعْجَبِـــينَ من سَقَمى صحَّتى هى العَجَبُ
كلمـــا انْتَفَى سَبَبٌ منـــك جاءنى سَبَب

وتؤرخ هذه القصيدة بمطلع شبابه . ويقول ابن خلكان إنها أول ما قاله من الشعر وهو صبى . وله فى ديوانه من مثله مالا سبيل إلى حصره لأنه كثير ، وكان يصدر به عن متابعة أصيلة لتقليد عصرى مستحدث . فإن تركناه إلى الحسين بن الضحاك نراه ينشد بوزن جديد[٣] :

عـــالم بحبيبـــه مطـــرق من التيـــه
يوسف الجمـــال وفر عـــون فى تعـــديه
مـــا الحيـــاة نافعـــة لى على تأبيـــه

---

(١) العمدة ١ : ١٢٠ وفى مقدمة ديوانه شىء عن توسعه فى العروض ٦٢ وما بعدها .
(٢) الأوراق ٥١
(٣) الأغانى ٦ : ١٨٥

وأما سعيد بن وهب فى المضارع ينشد[١] :

لقد قلت حين قر بت العيس يا نَوَارُ
قفوا فاربعوا قليلاً فلم يربعوا وساروا

وإبراهيم العروضى ينشد[٢] :

أيها الرجل الذى قد زان منطقه البيان
لا تعتبن من الزما ن فليس يُعتبك الزمان

فيسهم فى عملية التطوير الشكلى للقصيدة العربية فى البصرة . ولم يكن هذا العمل إلا جزءاً من التحرر الذى اصطنعه شعراء العصر العباسى كله ، فنحن لا نستطيع أن ننكر ما فعله أبو العتاهية وما فعله مطيع بن إياس من شعراء الكوفة ، لا نستطيع أن ننكر ذلك ؛ فلقد كان الشعراء فى العالم الإسلامى كله يلتقون ، وكان بعضهم يقف على آثار بعض ، وكان السابقون إلى الجديد يدفعون غيرهم إلى التحرك !

المضمون :

ونقف عند المضمون ، لنرى من خلاله إلى أى حد ضعف المثل الجاهلى عند شعراء عصر التجديد . والمضمون فيما يجب أن نعرف إذا عرضنا لبناء العمل الفنى وقائع اجتماعية تشكلها الصور ، فهى ليست المعانى التى جرى العرف على ربطها بالألفاظ بحيث يقول واحداً كابن رشيق مثلاً « اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته[٣] » .

أو يسبقه واحد كابن قتيبة فيجعل للشعر أربعة أضرب : أحدها حسن

---

(١) الأغانى ١١ : ٦٩ فاربعوا : فأقيموا.

(٢) السابق ٦ : ١٠ وإبراهيم كان مولى لقريش فى البصرة ، أخذ العروض عن الخليل فشهر به ، وانقطع إلى آل سليمان بن على وأدب أولادهم ومدحهم وكان يقول أوزاناً غريبة من الشعر .

(٣) العمدة ١ : ٨٠

لفظه وجاد معناه ، وآخر حسن لفظه ولا فائدة فى معناه ، وثالث جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، ورابع تأخر معناه ولفظه جميعاً[١] . والطريف أننا بمراجعة الأمثلة التى يوردها ابن قتيبة نراه يريد بالمعنى إما فكرة معبراً عنها تعبيراً دقيقاً نحو قول أوس ابن حَجَر :

أيَّتُها النَّفْسُ أجْمِلى جَزَعا إنَّ الذى تَحْذَرينَ قد وَقَعَا

وإما صفة خلقية كقول أبى ذؤيب الهذلى :

والنَّفْسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

وأما الصور التى تعكس أحداث العمل الأدبى، وتحدد المواقف الاجتماعية، الصور التى انفعل لها الشاعر ، وتضمنت ما اهتم به الأقدمون من معان مختلفة ، أما هذه الصور التى تقوم على التداعى والإيحاء والتشخيص ، فشىء لا يُعْنَى به ابن قتيبة بدليل عدم رضائه عن أبيات جرير التالية :

بَانَ الخليطُ ولو طُوِّعْتُ ما بَانَا وقَطَّعُوا من حبال الوَصْل أقرانا
إنَّ العيونَ التى فى طرْفِها مَرَضٌ قتَّلْنَنَا ثم لمْ يُحْيِينَ قَتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حراكَ به وهنَّ أضْعَفُ خلْقِ الله أركانا

من هنا نرى أن ابنَ قتيبة لم يستطع أن يضَعَ يده على حقيقة المضمون الذى نقصد ، وكذلك لم يفعلْ منْ جاء بعده ، وحتى هؤلاء الذين ظهروا فى القرن الرابع لم يحدّدوا بالضبط قصدهم منها ، فجاء حديثهم عنها ساذجاً سطحياً ليست فيه إصابة ، وعَرَضُوا للسرقات والمواردات والإغارة والاهتدام والاستلحاق والاصطراف وكلها قريب مما قال ابن رشيق[٢] ، وحين حدثونا عن الأشياء المركبة من ضروب المعانى ، والفروق بين ما يطرقه شاعر وشاعر ، ووجوه الشبه بين قول وقول ، لم يصيبوا الإصابة كلها ، ووجهوا جهدهم إلى الموازنة ، وحكموا فى الغالب للسابق ! فعل ذلك الآمدى والجرجانى والصولى وابنُ رشيق

(١) الشعر والشعراء ٩ وما بعدها .
(٢) راجع العمدة ٢ : ٢١٥

والخالديان ، وفعله كل من شغل نفسه بالنقد والبلاغة . ونسوا أن المعانى لا يمكن حصرها ، وأن الصور قد تتشابه والأفكار تتقارب . ولعل القاضى الجرجانى كان أصوب نظرة وأوضح منهجًا حين فرَّق بين العام المشترك من المعانى وبين السابق المتقدم الذى تداول من قبل الشعراء فصار كالعام المشترك ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فلكه فصار المعتدى عليه محتذيًا تابعًا ، وفى هذا تقع السرقة[١] .

ويعنينى من ذلك اتخاذنا التوارد دليلاً على التطور ، لا سيما إذا عرضنا لتفاصيل الصورة[٢] ذلك الجانب الذى وقفنا عنده طويلاً فى درسنا لشعر العصر العربى الخالص ، وقد انتهيت إلى أن الفحول فى احتذائهم الشعر الجاهلى لم يكونوا مجرد نقلة لصوره . أىّ لم يكونوا نسّاخين لآثار القدماء ، وإنما كانوا يدورون فى فلكهم ، يأخذون بتخطيطهم العام فقط ما دام نقاد العصر قد أجمعوا على ضرورة التمسك بالأسلوب القديم !

ولننظر الآن فيما يقال من أن بشاراً نَظَر إلى قَوْل امرئ القيس الشاعر الجاهلىّ فى وصف العقاب :

كأن قلوبَ الطير رطبًا ويابسًا
لدَى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

حين قال هو :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه[٣]

ويحضرنى هنا قَوْلٌ قاله مُحدَثٌ عن الصورة وكيف أنها « الوسيلة التى يختار بها الفنان مادته ويطورها[٤] » ، يحضرنى ذلك لأقول إن عمل بشار فى البيت سَوىُّ الصنعة ، ومجرد تشبيه شيئين بشيئين لا يعنى رَبْط أحد

---

(١) الوساطة ١٤٨

(٢) يصرح الخالديان بأن التوارد عندهما سرقة لا محالة (راجع الأشباه والنظائر ١ : ٢٠ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨) .

(٣) أخبار أبى تمام ١٧

(٤) N.C. Starr, The Dinamics of Literature, P. 30. New York, 1945 .

الشاعرين بالآخر . فمن المؤكد أن صورة بَشار تختلف كل الاختلاف عن صورة امرئ القيس ، وقد أخذ مادتها من موضوع شغل عصره ، هو معارك تمكين السيادة للدولة العربية ، وأما امرؤ القيس فقد قدّم صورةً قديمة من صور الصحراء ، وكلا الاثنين كان له أسلوبه فاكتملت عنده الصورة.

ولكنى لا أعنى ذلك فقط فى حديثى عن التوارد ، وإنما أعنى أيضًا شيئًا آخر هو استغلال مادة الصورة نفسها ، فإذا قرأنا قَوْلَ سلم الخاسر راوية بشار يعتذر إلى المهدى :

وأنت كالدهر مبثوثًا حبائله ... والدهر لا ملجأ منه ولا هَرَبُ
ولو ملكت عنان الريح أصرفُه ... فى كل ناحية ما فاتك الطلب

وجدنا واحداً كالصولى يسرع فيقول إنه مأخوذ من قول النابغة يعتذر به إلى النعمان :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرِكى ... وإن خِلْتُ أن المُنْتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

« فجعل حيال وإنك كالليل ، وأنت كالدهر . وجعل خطاطيف حجن ، ولو ملكت عنان الريح[1] »، ومن المؤكد أن بيتَىْ سلم الخاسر أحسن من بيتى النابغة . فإذا تحولنا إلى عناصر مادتيهما رأينا العناصر الجاهلية فى بيتى النابغة من حيث عرضه للدلو والحبل والخطاطيف الحُجْن ، وعند سلم — وقد ارتقى العقل — فكرة الدهر التى شغلت مفكرى العصر على نحو ما رأينا . والليل عند النابغة يتحول إلى ريح عند سلم الذى توفر له من أسباب الإحاطة بالليل مالم يتوفر للنابغة .

ليل النابغة مبهم موحش رهيب ، وأما الليل عند سلم فسهر وشرب وعبث ، ومن هنا لم يشأ أن يعرض له فى هذا الموقف !

---

(١) أخبار أبى تمام ١٩ ، ٢٠

ربما لم يفكر سلم فى أى شىء مما ذكرت ، ولكن الثابت أنه كان يحيا حياته . كان يصدر بشعره عن انفعال صادق بما حوله ، وكان يستخدم المادة من وقائع عصره .

والعصر العربى الخالص جاهلى فى احتذائه المثل الجاهلى برغم ما فيه من أصالة وصدق ، وفى هذا العصر يسمع أبو نواس بكثيِّر عزة يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثَّلُ لى ليلى بكلّ سبيل

فيختلس المعنى — كما يقول ابنُ رشيق — ويقوله فى المدح ، فإذا هو :

ملك تصوَّرَ فى القلوب مثالهُ فكأنه لم يَخْلُ منه مكان

يقول القاضى الجرجانى « فلم يشك عالم فى أن أحدَهما من الآخر ، وإن كان الأول نسيباً والثانى مديحاً[1] غير أن واحداً من الرجلين لم يلحظ ما فى بيت كثير من تهويم وما فى بيت أبى نواس من تجسيم ، ثم ما فى بيت كثير من صدق ووداعة وما فى بيت أبى نواس من تحقيق وملق . الأول يتكلم عن صاحبته فى شىء كالحلم ، والثانى يتكلم عن ممدوحه فى مكانية محددة !

بيت كثير منتزع من بيئته فهو تهويمة نفسية ، وبيت أبى نواس معنى جامد لأنه فى عصر تقدم العلوم .

ولكن البعد عن المثل الجاهلى يظهر فى أكثر من ذلك ، يظهر فى بعد عناصر الصورة الفنية الجديدة عن المادية الحسية التى ألفها الجاهليون . نلمس ذلك عند بشار وعند محمد بن أبى عيينة وعند محمد بن يسير وعند ابن مناذر ، نلمسه عند الجميع حتى عند رؤبة فى بعض الأحيان !

والأمر بالنسبة لبشار فيه نظر ، وبالنسبة لرؤبة ظاهرة تستحق النظر .

فقد عرض بعض المحدثين لتشبيه بشار — وهو بعض الصورة الفنية التى نريد — وقالوا إنه تشبيه إيهامى مجرد من الشكل واللون والحرم والتناسب ، لأنه

---

(١) العمدة ٢ : ٢٢ والوساطة ١٦٤

أعمى ودلالات تشبيهاته لذلك لا بدّ أن تكون كلها تقريبية[١]. وعجيب هذا القول ينسحب على كل صور التشبيه لشاعر كبير له فيها من الدقة والأصالة ما يبعد بها عن الوهم . ويبدو أن القائلين أرادوا أن يربطوا بين عاهته وبين عملية التطوير التى حطم بها إطار الصورة القديمة . وقد يكون لعماه دخل فى تحول الصورة ذلك التحوُّل ، إلا أننا نظلمه إذا فصلنا طبيعته عنه ، وقد كان ذكاؤه يعينه كثيراً على تحديد الصلة بين الحواس ويمكّنه من الوقوف على إحساس الناس بمسميات الألوان وكان قد سئل عن سبب إجادته التشبيه ، فقال : إن عدم النظر يُقوّى ذكاءَ القلب ويقطع عنه الشغلَ بما يُنْظَرُ إليه من الأشياء فيتوفّر حسه وتَذْكو قريحتُه :

عَمِيتُ جنيناً والذكاءُ من العَمَى ... فجئتُ عجيبَ الظنّ ، للعلم مَوْئِلا
وغاضَ ضياءُ العَيْن للعلم رافداً ... لقلْبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلا
وشعرٍ كنَوْر الرَّوْض لاءمت بينَه ... بقول إذا ما أحْزَنَ الشعر أسْهَلا[٢]

بُعْدُ الصورة إذن عن المألوف بحيث تختلط الحواس فيها ، عملية يقظة من شاعر مدرك لما يفعل . لقد أراد أن يقف سامعيه على قدرته الخارقة على التحديد فشغلهم بحديثه عن الألوان ، وجاء هذا الحديث فى ديوانه كثيراً ، قال مثلا :

وحديث كأنه قِطَعُ الرَّوْ ... ض وفيه الحمراء والصفراءُ

وقال يخاطب صاحبة له :

وإذا دخلتِ تَقَنَّعى ... بالحُمْر إن الحُسْنَ أحمر

وقال فى معركة :

كأنما النقع يومئذٍ فوق أرؤسِهِمْ
سَقْفٌ كواكبهُ البِيضُ المباتيرُ

والبيت الأخير يحدد موقفه من الألوان ؛ فهو مؤمن بأن الكواكب تضىء

---

(١) دكتور نجيب البهبيتى فى تاريخ الشعر العربى ٣٥٥ ، ٣٦٠

(٢) الأغانى ٣ : ١٤٢

ويعرف عن السيوف أنها تلمع ، وعلاقة النور هنا مرتبطة بالبياض ، ومن ثَمَّ جمع بين الكواكب والسيوف فى سهولة وصدق . وأما قطع الروض فهى كثيرة الألوان ، إلا أنه يبين اللون الأحمر فى البيت الثانى ليقرر العلاقة بين اشتهاء الرجل واللون الأحمر !

مرة أخرى نقول إن عمى بشار لم يكن وحدَه سببًا فى امتداد مذهبه فى التشبيه من حيث إنه يبعد بُعْداً عما ألفناه فى الشعر القديم .

كان بشار يقول(١) :

لها منطِقٌ فاخرٌ فاتنٌ كحلى العرائسِ يُسْتَمْلح

ويقول(٢) :

كأن ثلجاً بين أسنانها مستشركًا راحا وتفاحا

ويقول(٣) :

حَوْراءُ إن نَظَرَتْ إليـ ـكَ سَقَتْكَ بالعينين خَمْرا
وكأنَّ رَجْعَ حديثها قطعُ الرياضَ كُسين زَهْرا
وكأنَّ تَحْتَ لسانها هاروتَ يَنْفُثُ فيه سِحرا
وتَخال ما جَمعَتْ عليـ ـه ثيابَها ذهبا وعطرا

ويقول(٤) :

تَسُرُّ عينا وتَلْقَى الشمسَ غيبتَها
كأنما خُلِقَتْ من ضَوءِ مصباحِ

يقول هذا فلا نكاد نحس إيهامًا ، بل نحس قدرة على التصوير وعلى

---

(١) ديوانه ٢ : ١١٨

(٢) ديوانه ٢ : ١٥١ وليس فى اللغة استشرك من الشركة .

(٣) الأغانى ٣ : ١٥٥ والكامل ٢ : ٩٧

(٤) الديوان ٢ : ١٣٥ ويريد أنك تلقى صاحبته شمسا فى غيبة الشمس ، وصورة المصباح شغلته كثيراً فى شعره .

اختيار عناصر الصورة من واقع حياته ، مما تراه بصيرته ويحسه فؤاده الذكى ، ويضعه مع الكبار من الشعراء ، بل يجعله صاحب مذهب يجتمع له ناس من كل مكان حتى من الكوفة[١] .

هذا بالنسبة لبشار . وأما بالنسبة لرؤبة فقد يكون عجيباً لأول وهلة أن نزعم أنه يبتعد عن المثل الجاهلى . بل الأعجب ألا نرى فيما عمله هو وأبوه بالرجز شيئاً جديداً لم يألفه الجاهليون ؛ فكانا صاحبَى مدرسة فى الشعر العربى نماها الابنُ حتى أصبحت فى أيام العباسيين شعراً تعليميا « فى اللغة من حيث هى لغة » ، كما يقول شوقى ضيف[٢] .

يقول ذلك الراجز فيما يقول :

كأنَّ فَوْقَ الناصع المُبَطَّنِ
من حَبَرَات العيش ذى التَّدَهْقُنِ
بانًا جَرَى فى الرازقى البَهْمَنى[٣]

فيعطى صورة من صور الترف وخفض العيش حيث الملابس الرقيقة الجميلة . ولم يستطع أحد تفسير « البهمنى » بل لقد قال ابن قتيبة « والرزاقى البهمن لم يقل فيه شيئاً وأخشى أن يكون كفراً »[٤] .

ويقول أيضاً فى وصف البعير :

أصهبَ يمشى مشيةَ الأمير
كأن جلدَ الوَجْه من حرير
أملسَ إلا خطرةَ الجرير[٥]

---

(١) راجع الأغانى ٣ : ٢٣٣

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ٢٨٢

(٣) ديوان رؤبة ١٦١ والحبرة : النعمة ، التدهقن : لين الطعام ، بانا : دهناً .

(٤) الشعر والشعراء ٥٨٣ والرازقى : ثياب بيض ، البهمنى : نسبة إلى بهمن أحد ملوك الفرس .

(٥) مشارف الأقاويز ١٣١ والجرير : الزمام ، يريد أنه أملس إلا ما أصابه الزمام فحزه.

فيعرض أمامنا ذلك البعير الأشهب المنعم الذى يمشى فى خيلاء كأنه أمير ؛ هذا البعير ليس كبعير الصحراء ، فهو ناعم الجلد أملس إلا حيث يكون الزمام فيحز فى جسمه ؛ ويقول فى ممدوح[١] :

والناسُ شَتَّى يَحْتَسُون المَوْتا
واللهُ يرمى عندما رَمَيْتا

ليعطينا صورة الجَبْر فى احتساء الناس موتهم على يدهم التى ترمى وفوقها يدُ الله ترمى ، ولكنه — بَعْدُ — لا يريد أن يبتعد عن الحياة العامة ، وهو لذلك يصفها فى صور لطيفة سريعة خفيفة . تروى الأخبار أنه وقف يومًا بالبصرة على باب سليمان بن على يستأذنه فقيل له : إنه أخذ الأذريطوس — دواء ما — فقال مازحًا[٢] .

يا مُنزلَ الوَحْى على إدريس ! ومنزلَ اللعْن على إبليس
وخالقَ الإثنين والخميس باركْ له فى شرب أذْريطوس

وكان قد قَعَدَ مع صَحْبه يلعب النرد فلما جىء بالخوان شغل بالأكل ، فرمى بالنرد وهو يقول :

يا إخوتى جاء الخوان فارفعوا
حَنَّانةً كعابها تقعقع
لم أدر ما ثلاثُها والأربعُ

قال الراوى « فضحكنا ورفعناها وقدم الطعام »[٣] .

على هذه الشاكلة تمضى فإذا كل شىء يتحول هذا التحول الخصب ويصبح — المصنوع منه والمطبوع — مرآة لما يجرى ، وتتلون الصورة بالمادة الحية التى ينفعل لها المجتمع . لقد عاش الشعراء حياتهم وأضفوا على فنهم روحًا جديدة

---

(١) مشارف ٤٠
(٢) طبقات الفحول ٥٨٠
(٣) السابق ٥٨١

أبعدتهم عن أنماط الجاهليين ، وسنرى فيما يلى بعض صور لبعض الشعراء الذين شهدوا عصر التوليد .

يقول أبان اللاحقى بُعَيْدَ خروجه من البصرة متوسلاً إلى الفضل بن يحيى البرمكى (١) :

يا عزيز الندى ويا جوهر الجو ... هر من آل هاشم بالبطاح
إن ظنى وليس يخلف ظنى ... باك فى حاجتى سبيل النجاح

إنه هنا متأثر بالعقلية البصرية ، يتكلم عن الجوهر ويتوسل بالشك لتحقيق مآربه ؛ فهو حذر وإن كان جَمَّ الرغبة ، غير أنه لا ينسى الصور المادية التى يراها فيقول (٢) :

رب يوم بشط دجلة لذ ... وليال نَعِمْتُ فيها لذاذ
غيبةٌ لم تطل علىَّ وماذا ... غير قرب المطرمذ الملاذ
ترك الأشربات ليس ببعاط ... لرساطونها ولا الراقياذ

إنه يستعين على رسم الصورة بأدوات لم تعرفها العربية قبل ، ويحدد خطوط قصيدة تعبر عن مشاعرها وأفكارها بالصور تعبيراً موحياً يخاطب به المجموعة التى تحيا حياة غير حياة القدماء ، هذه المجموعة التى كان يعجبها أن يقول فيما يقول (٣) :

نَعِمْنا ليلة الإنعا ... م حَيْثُ العَرْجُ ينْعرجُ ؟
بناعمة كَمِثْل البد ... ر شاب دلالها غَنَجُ
تغادينى المعازفُ عو ... دَها والصنْجُ والرَّنَجُ
بكفَّى شادن لم أز ... سه فى طرفه دَعَجُ
له نغماتُ قينات ... بها الأرواحُ تَخْتَلِجُ
أحب من الغناء مليـ ... حُ ما إيقاعهُ الهَزَجُ

(١) الأوراق ٣
(٢) السابق ١٠
(٣) نفسه ١٥

جلسة متاع لا يتمرس الشاعر خلالها بغير مشاعر الوجد والحنين ، والذكرى مشرقة تنساب انسياب الخمر على اختلاج الأوتار . ولكن الشاعر يعانق بتجربته الشعرية الجديدة قيماً تقليدية كان لا بدّ من الحرص عليها ، وهو لذلك يمضى إلى ممدوحه ؛ فقد كان ما ذكرنا مقدمة النسيب الكلاسيكية اتخذت عنده إطاراً جديداً !

ومع ذلك فلم يكن أبان بأكثر جدةً من غيره ! إنا لا نشير الآن إلى بشار ولا إلى أبى نواس . فعند هذين الشاعرين يتحقق التجديد فى أصالة وصدق وإبداع واتساع ، ولكنا نشير إلى من كان فى مستواه الفنى ، نشير إلى سلم وابن محمد بن أبى عيينة ومحمد بن مناذر ومحمد بن حازم .

لقد عرض ابن محمد بن أبى عيينة لبعض قطائع أقطعها له المهلب فى البصرة ووصف السفن التى تمر أمامها مشكِّلةً حياة لا يمكن أن توجد إلا فى البصرة[1] إلا أننا لو تعمقناه للحظنا أنه لا يعرض لانفعاله عرضاً فيه تقرير . بل يبرزه بصور حية تجمع عناصرها فى وحدة فكأنها « اللوحة » يرسمها الفنان . لقد كان فى الخريبة قصر لعيسى بن جعفر ، فقال فيه :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصر والوادى
وحبذا أهلهُ من حاضرٍ بادى
ترفا قراقيرهُ والعيس واقفةٌ
والضبُّ والنون والملاح والحادى

ويذكر أبو الفرج أن الفضل بن الربيع قال إن ابن أبى عيينة أشعر أهل زمانه بذلك الوصف . وللشاعر نفسه عن قصرٍ ما كلام تنضج فيه الإجادة ، ويبتعد به عما ألف من وصف الأقدمين يقول :

فيا طيبَ ذاك القصر قصراً ومنزلا
بأفْيَحَ سَهْلٍ غيْرِ وَعْرٍ ولا ضَنْكِ

---

(١) راجع الشعر والشعراء ٨٥٣ ، الأغانى ١٨ : ٢١

(٢) الأغانى ١٨ : ١٥

بغرسٍ كأبكار الجـوَارى وتُـرْبَـةٍ
كأنَّ ثراها ماءُ ورد على مسْكِ
كأن قصورَ القوم يَنْظرنَ نَحوَه
إلى مَلَكٍ موف على منْبرِ المُلكِ
يُدلّ عليهـا مستطِيلاً بفضلِه
فيضحكُ منها وهى مطرِقة تبكى[1]

صياغة لم تخرج إلينا عفواً ، بل هى ثمرة لمرحلة طويلة مستأنية من الجهد ، ونتيجة لتفاعلات الحياة المطردة النمو ، الملحة فى طلب التعبير الذى يحتضن الواقع الجديد .

ويبدو أن مسألة وصف القصور والبساتين قد شغلت البصريين كثيراً ، وها هو ذا عبد الصمد بن المعذل — أحد هَجَّائى البصرة من الشعراء — يصف بستانَه فيقول[2] :

إذا لم يزُرْنىَ ندمانيـه خلوتُ فنـادمت بستانيـه
أنادِمُه خَضِراً مونِقًـا يُهيِّجُ ذكر أشـجانيـه
أرى فيه مثلَ مدارى الظبـا تظـل لأطلائهـا حانيـه
ونوْر أقاحٍ شتيتَ النباتِ كما ابتسمت عجبًا غانيه
ونرجسُه مثلُ عين الفتاة إلى وَجْهِ عاشِقِها رانيـه

الشاعر يصوغ صوره مستعينًا بأدوات يراها بعينيه فأصاب وأجاد ، وكأنه كان يتعمق قول أبى النواس حين يستنكر على أى شاعر أن يصف ما لا يرى[3] :

تصف الطلول على السماع بهـا أفذو العيـان كأنت فى العلم
وإذا وصفت الشىء مُتَّبِعًـا لِمَ تَخْلُ من زللٍ ومن وَهمِ

(١) الشعر والشعراء ٨٥٣ وفى الأغانى ١٨ : ١٤ باختلاف .
(٢) الأغانى ١٢ : ٥٩
(٣) ديوانه ٥٨

لا أريد إطالة لأن المفروض أن يحيا الشاعر حياته ، أن يعبر عما يحسه الناس[١] ، وقد فعل شعراء هذه المرحلة ذلك فالتف حولهم الناس ، وردد الجميع شعرهم ! حتى هؤلاء الذين غالوا فى شعوبيتهم وسبوا العرب ، هؤلاء لم يضن أحد عليهم بالتقدير ، وإلا فلنعد إلى ما يقال عن شعر بشار وعن أبى نواس .

ولقد تبع ذلك ظاهرة هامة جداً . هى الارتفاع بالصورة عن مستويات الحسيات حتى ليمكن أن يقال الآن إن الصورة الجديدة إما أن تكون ملتصقة بالحياة التى يحياها الشعراء ، وإما أن تحلق مبتعدة عن النزعة الحسية التى لم يستطع الشعر القديم أن يتخلص منها ، ولا سبيل إلى تقدير عمل شعرى جديد دون تحديد ما به من نموّ وتحوّل .

وبين أشعار النظام صورةٌ اختلط الناس فيها ، حتى نسبت إلى أبى نواس فى ديوانه ، هذه الصورة هى :

ما زلت آخذ روحَ الزِّقّ فى لطُف
وأستبيح دمًا من غـير مذبوح

---

(١) هذه العبارة تحتاج إلى أن نقف عندها قليلا ، ذلك أنه ليس المفروض — بداهة — أن يعبر الشاعر عما يحسه الناس ، إنما هو يعبر عما يحسه هو لذات نفسه ، والذى يحدث من الوجهة العملية أن الناس يجدون فى قول الشاعر صدى لأحاسيسهم الخاصة التى لا يحسنون التعبير عنها تعبيراً فنياً ، ومن هنا يحدث اللقاء بين الشاعر والناس . أما أن يكون الشاعر قاصداً أن يعبر عن أحاسيس الناس فليس هذا شرطاً من شروط الفن ولا رسالته ، ولا يدل بذاته على ارتفاع فى القيم الفنية ؛ فقد كان موجوداً فى الشعر الجاهلى بصورة واضحة ، حيث اعتاد الشاعر أن يعبر عن أحاسيس القبيلة وانفعالها ومطالبها وأفكارها ، ويخاطب بشعره بقية الناس ، فتم بذلك طور بدائى من التعبير الفنى رأينا فيه الجيد أحياناً ، ورأينا كثيراً من القول المعاد فى أغلب الأحيان !

بل إنى أرى أن النهضة الأدبية التى عرفها هذا العصر ، هى أثر من آثار التحول الذى أحدثه الإسلام فى العرب — حتى ولو كان الشعراء أنفسهم غير آخذين به — ذلك التحول الذى جعل القبائل العربية أمة ، ومن ثم « حرر » الفرد شاعراً أو غير شاعر من ربقة القبيلة ، ليكون كائناً مستقلا له وجوده الخاص — وإن يكن فى حدود الأمة الواسعة — وهذا الاستقلال الشعورى هو الذى وسع دائرة التميز بين شاعر وشاعر فى الخصائص النفسية والفنية ، بما لم يكن ملحوظاً بهذه الدرجة أيام الجاهلية .

حتى انتشيت ولى روحان فى بـــدنى
والزقُّ مُطرِحٌ جسمٌ بلا روح[١]

ونلحظ فى سهولة تمايز صياغة البيتين الفنية عن الصياغة التقليدية ، بل نلحظ فى سهولة الفكرة التى لا تصدر إلا عن طائفة جديدة من الشعراء يرون « المليحة » تجرى أحياناً مجرى الأصالة فى الرأى ، يقول العطوى الشاعر المتكلم :

مـــا رأينـــا سوى المليحة شـــيئًا
جَمَعَ الحُسْنَ كلَّه فى نظام
فهى تجرى مَجْرَى الأصالة فى الرأ
ى ومجرى الأرواح فى الأجسام[٢]

الصورة إذن طرقت أبواب الروح وعرضت للذهنيات ، أصبح التشبيه بعيداً ، ولم يعد مقارباً أو مصيباً كما كان شائعاً عند القدماء[٣].

ولكن صورة المليحة تدق دقة متناهية لا يقدر على تحديدها سوى رجل كالنظام ، فيقول فى جدة من السهل إدراكها وتحديد معالمها :

تَوَهَّمَـــه طـــرْفى فـــآلمَ خَدَّه
فصار مكانَ الوهم منْ نَظَرِى أثْرُ
وصـــافحه كفى فـــآلم كفَّـــه
فَمَنْ صفح كفى فى أنامله عَقْرُ
ومـــرّ بقلبى خاطِراً فجـــرحتـــه
ولم أرَ خلقًا قط يجرحُه الفِكْرُ
يمرّ فمِن لينٍ وحسنِ تَعَطُّف
يقـــال به سكر وليس به سُكْرُ[٤]

---

(١) راجع طبقات ابن المعتز ٢٧٢ وتأويل مختلف الحديث ٢٠
(٢) الكامل ٢ : ٤٩
(٣) راجع الكامل ٢ : ٨٧
(٤) رضى الدين الشامى فى التذكرة الأدبية ورقة ١٧ (نسخة خطية محفوظة بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٥٢٦٣ أدب) وراجع أيضاً أمالى المرتضى ١ : ١٨٨ (ط . الحلبى)

وأعرض على أية حال لجانب من صور أبى نواس ؛ فهى تلقى أضواء على ما نريد أن نصل إليه فيما نقوله عن ابتعاد الصورة الفنية الجديدة عن النزعة الحسية ، يقول أبو نواس :

قهـوة يحسبهـا النـا ظرُ إن صبت شـعاعاً[١]

الصورة هيّنَةٌ ، والشاعر يلح عليها فيعقدها حتى يتطور بها . فإذا هى فى آخر الأمر تفسر مدى إدراكه لهذه الظاهرة الجميلة ووعيه بها ورؤيته الفنية لحقيقها ، فكأنها هى كل شىء :

وكأن شاربَها لِفَرْط شُعاعِهـا
باللليل يَكْرَعُ فى سَنَا مِقباس[٢]

وكان شاعرنا لا يريد أن ينزل بها أبداً إلى الأرض لأنها . . .

رقت عن اللمس فهى كالقمر
الطالع فى الماء فات من نظرا[٣]

ولكن هذا لا يكفى ، إنه أقل كثيراً من حقيقتها ! وعيه بها دقيق مفرط فى الدقة واجتماعه بصحبه عليها وخطبته إياها وركوب الصعب من أجلها يجعلها كل شىء ، وإلا فما كان من حقه أن يقول عنها :

عُتِّقَت فى الدَّنّ حتّى هى فى رقـةِ دينى[٤]

مجرد فكرة غائمة ، بعيدة ، لا نستطيع تقديرها ، ولا يستطيع هو أن يقدرها . إنها حاجة ملحة ورغبة أكيدة وضعها أمام الناس فى المقام الأول عنده ، ولكنها مرحلة ليقول بعدها :

جاءت كروح لم يَقُمْ جَوْهَرٌ لطفًا به ، أو يُحْصِه نور[٥]

(١) ديوانه ١٢٥
(٢) نفسه ١٠٥
(٣) السابق ١٩٠
(٤) السابق ٧٠
(٥) السابق ١٤

ثم نقرأ له فى خزانة الأدب للحموى :

وقد خفيت من لطفِها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبــه الشكُّ

كما نقرأ فيها :

صَفَتْ وَصَفَتْ زجاجتُها عليها كمعــنى دَقَّ فى ذهنٍ لطيفِ

وفيها :

فتمشَّت فى مفــاصلهم كتَمَشّى البُرْءِ فى السَّقَمِ

فإذا ذلك « تجريد ووهم لم يكن يعمد إليهما الشاعر القديم ، إذ كان يتكىء وصفه على المادة والحس »[١] .

وتنتقل إلى الحسن بن الضحاك الذى حكى عن نفسه قائلاً : « كنت أنا وأبو نواس تربين نشأنا فى مكان واحد ، وتأدبنا بالبصرة ، وكنا نحضر مجالس الأدباء متصاحبين »[٢] .

يقول هذا الشاعر محتذيًا تربه :

ولو شئت تيســرت كما سُميت يا يســر
وكن كاسمك لا تمنعــ ك النخــوة والكبر[٣]

وهذا القول لا يبعد عن قول أبى نواس نفسه فى رحمة بن نجاح وهو محموم :

فكن لنا رحمة نفسى فداك ولا تكن خلافًا لما ذو العرش سماكا[٤]

كما يقول مصطنعًا صورة منطقية :

صفــاته فاتنــة كلهــا فبعضــه يذكرنى بعضــه[٥]

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٩٢ والأبيات الثلاثة نقلها الدكتور شوقى ضيف عن خزانة الحموى

(٢) الأغانى ٦ : ١٧٤

(٣) السابق ٦ : ١٨٧

(٤) ديوانه ٢٩٩

(٥) الأغانى ٦ : ١٨٦

ولكن الحياة العقلية التى عاشها البصريون تلون شعره بلون فكرى فيرتقى الغزل عنده إلى معنى مجرد حيث يقول :

أنا من لا أرى وليس يرانى ... نصب عينى ممثل بالأمانى
بأبى مَن ضميره وضميرى ... أبداً بالمغيب ينتجيان
نحن شخصان إن نظرت وروحا ... ن إذا ما اختبرت يمتزجان
فإذا ما هممت بالأمر أو هـ ... ـم بشىء بدأته وبدانى
كان وفقاً ما كان منه ومنى ... فكأنه حكيته وحكانى[1]

هذا اللون من الغزل المعنوى موجود عند النظام فى نحو قوله :

رقّ فلو بُزّتْ سرابيله ... علقه الجوُّ من اللطف[2]

ونحو قوله أيضاً :

أفرغ من نور سمائى ... مصوّر من جسم إنسى
وافتقر الحسن إلى حسنه ... فجلّ من تحديد كيفى
أبدعه الخالق واختاره ... من مازج الأنوار علوى[3]

فنرى أن تلك الصفات العقلية التى يعرض لها النظام ليست مجرد جوانب حسية تستعار ، وإنما هى أسلوب وطريقة عرض . هى صياغة ، وهى خاصة يمتاز بها بناء النظام الفنى ، وإلا فلنعد من جديد ونقرأ مايستحسنه ابن المعتز من شعره :

ألا يا خير من رأت العيون ... نظيرك لا يُحَسُّ ولا يكون
وفضلك لا يحَدُّ ولا يجارى ... ولا تحوى حيازتَه الظنون
خلقت بلا مشاكلة لشىء ... وأنت الفَوْق والشَقلان دون
كأن الملك لم يك قبل شيئاً ... إلى أن قام بالملك الأمين[4]

---

(١) الأغانى ٦ : ١٧٢
(٢) طبقات ابن المعتز ٢٧٢
(٣) نقد النثر ١١٧
(٤) طبقات ابن المعتز ٢٧٢ ولأبى نواس مثل هذا يرجع إليه فى الديوان ٢٤٠ ، ٢٤٤ على سبيل المثال .

لنجتزئ القول بعد ذلك ، فقد ظهر لنا الآن كيف تطورت الصورة عند الشعراء المولدين ؛ حتى إذا شئنا أن نختم ، ذكرنا شيئاً كان نتيجة لازمة لثقافة الشعراء الجديدة ، أو كان أثراً للعقلية البصرية التى تعنى بالتجديد ، أقول ذلك لأعرض لظاهرة التشخيص التى شاعت عند المحدثين ، يقول بشار :

لعمرى لقد أشْمَتَّ بى عين نائم فنـــام وهمِّى ساهر يتوهج[١]

ويقول أشجع :

للفضل أموال أطاف بهـــا الندى حتى جهدن وجوده لم يجهد[٢]

ويقول أبو نواس :

بُحَّ صوت المال ممـــا منك يشكو ويصيح[٣]

ويقول أيضاً :

مـــا لرجل المـــال أمست تشتكى منك الكلالا[٤]

كما يقول :

وعســـكر الحـــب حولى بخيـــاه وجنـــوده[٥]

وأخيراً يقول النظام :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك[٦]

هذه الصور — ومثلها كثير — لم يعجب أكثرها النقاد فردوا منه ما ردوا[٧]. وناقشوا وأطالوا النقاش ، وخطأوا الشعراء وحاجوهم . لكنهم نسوا شيئاً واحداً ، نسوا أن الخروج على عمود الشعر ليس خروجاً على الفن نفسه ، وإنما هو

---

(١) ديوانه ١ : ٨٨
(٢) الأغانى ١٧ : ٤١
(٣) ديوانه ٤٣٤
(٤) السابق ٤٨٩
(٥) السابق ٤٩٧
(٦) طبقات ابن المعتز ٤٣٩
(٧) راجع مثلا الموشح ٢٦٨

خضوع لحاجات العصر ، وانفعال بأحداثه ، استجابة لما جدّ فى أشكال الحضارة ومضامينها .

آثار الإحساس بالعصر :

وأتقدم بعد ذلك إلى الجانب الأخير من هذا البحث ، وأعنى آثار الإحساس بالعصر ، وهى آثار عميقة معقدة اتخذت خطًّا آخر بعيداً عن الدين ، متفقًا مع التحديد العام لمدلول الثقافة ، وإن يكن ثمة وشائج قوية بين الماضى والحاضر .

ونستطيع فى سهولة أن نطمئن إلى أن شيئًا ما ، لم يكن أساسًا موحداً للتغير الذى طرأ على العقلية البصرية ، وبينما كان الدين فى العصر العربى الخالص يحدد كثيراً من المعالم العامة للمجتمع نراه فى هذه المرحلة أقل قوة فى توجيهه وفى تكييف نشاطه .

كان كل شىء فى المجتمع يتفاعل بقدر مشترك فى بناء صرحه ، وكانت الثقافة من حيث إنها تعبير فكرى وأدبى انعكاسًا للعمل الاجتماعى ومظهراً لما فى هذا العمل من علاقات وأسباب وجهود مبذولة . ومن هنا كان علينا أن نعين واقع البصرة الاجتماعى قبل أن نتلمس نشاطها الفنى .

ونشير إلى الحالة الاقتصادية بصورتها التى قوّمناها وإلى العوامل الطبعية التى عملت عملها فى الإنتاج ، وإلى الجنس والدين كأداتين فى عملية البناء ، وإلى العادات والتقاليد والوضع السياسى وإلى كل محصلات شعب له ماضيه ويحيا لمستقبله ، نفعل كل ذلك لنرى أن مشكلة الشعوبية هى التى حددت واقع البصرة المادى !

أجل . . الشعوبية بإرهاصاتها فى العصر العربى الخالص وفى صراعها مع النزعات العربية إبان الانقلاب العباسى ، وفى حرصها على أن تعيش بعد ذلك سيدة لها السلطان والسؤدد .

وقد اختلف البصريون شيعًا ، واتخذوا مواقف معينة منها وهى تسعى فى السيطرة على حياتهم الاجتماعية فى شتى مظاهرها . ولا شك أن من هذه المواقف الخيانة والمؤامرة والمصانعة والحرب والموادعة والهجاء والفخر . وعلى هذا تأخذ العملية الاجتماعية اتجاهين : واحدا يفسر حركة القضاء على النفوذ الأجنبى ، وآخر يفسر القضاء على أية قوة تعرقل نموّ المجتمع فى ظل نظام جديد .

هناك شعراء شهدوا أول تحركات الشعوبية ، وهؤلاء سكتوا لأنها كانت واهنة ضعيفة الأثر ، وثمة شعراء آخرون عاشروها وقد شبت عن الطوق فبعدوا عنها .

ولم يشترك شعراء العصر العربى الخالص فى عملية الانقلاب . فلما صاغ بشار موقفه بعد ذلك لم يجرؤ على أن يشترك اشتراكًا واسعًا فى تلك العملية ، إلا أنه عبر فى بعض جوانب شعره عن مرحلة حاسمة من مراحل انتفاضة الشعوبية ، وأما أبو نواس فقد صوّر مرحلة جديدة من حياة البصرة وهى تواجه مستقبلها المتطور . والعرب فى البصرة لم يقولوا صراحة — وقد قوى نفوذ الأعاجم — نحن ننكر الشعوبية وإنما كادوا ودسوا كما كاد غيرهم ودسّ ، ولعل هذا يفسر فيما يفسر مأساة البرامكة ومأساة الأخوين المصطرعين على الحكم ، الأمين والمأمون !

على أن الأدباء الذين تشيعوا والذين شهروا على العرب حرب الكلام عاشوا حياتهم اللاهية فى زندقة عرف بها بشار وابن المقفع وأبو نواس والرقاشى والخارکى كما عرف بها غيرهم من أدباء الكوفة كحماد ومطيع وغيرهما . وهذا يلقى الضوء على الخط الثانى من الإحساس بالعصر .

وأما الخط الثالث فلن يظهر — غالبًا على ماسنرى — إلا فيما سَمَتْ إليه الشعوبية . من تحقيق أمل فى إيطوبيا معينة ، تعوضهم هذا الحرمان الذى عانوه أيام الأمويين !

(١)

ولأبدأ من حيث تبدو حساسية العصر تعبيراً عما كان ، وفى هذا الحين من التاريخ لا نراها كنقائض الفحول ، وإنما نراها عصبية جديدة بعد أن تملك الأعاجم العجب كيف غالبهم العرب فراحوا يفخرون عليهم بمجدهم القديم . لقد كانوا لا يعنون بالأنساب عناية العرب بها ولكنهم لم يهملوها ، لم يعودوا يخافون مثل قولة إسماعيل بن يسار لهشام :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
ولى لسانٌ كحدّ السيفِ مسموم
أحمى به مجدَ أقوام ذَوى حسب
من كل قوْمٍ بتاجِ المُلكِ معموم
جحاجح سادة بُلْجٍ مرازبةٍ
جُرْدٍ عتاقٍ مساميحٍ مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معًا
والهرمذان لفخرٍ أو لتعظيم[١]

واجترأ واحد منهم وهو « درست » البصرى الذى قال : لولا أننى معلم والمعلم عند الناس أحمق وأنا مولى وليس المولى كالصريح لما دعا الناس إلى بغض هذه الدولة أحد غيرى ولأزلتُ أمرَهم وطمستُ عليهم حتى لا يقال بنو العباس! اجترأ هذا الشاعر فأنشد :

قومى الذين بكسرى توجوا نسبى
حتى ائتَزَرْتُ بمجد ليس يتزر[٢]

---

(١) الأغانى ٤ : ١٢ .

(٢) فى طبقات ابن المعتز ٣٣٥ نتف من أخباره

وأبان اللاحقى يبحث إلى أن يضنيه البحث، ولا يكاد يلتقى بالبرامكة حتى يجد السانحة لينتسب إلى الفرس على ألا يستبدل بهم أحداً ، يقول الشاعر [١]:

أكـــرم ببرمـــكَ والداً ومن البنين بما نجـــل
لا نبتغى بدلاً بهـــم أبداً ومـــن أين البـــدل

وبشار يمعن فى التطرف ويتيه بأصله أمام المهدى فيقول [٢]:

ونبئت قومـًا بهـــم جِنَّـــة يقولون من ذا وكنتُ العـــلم
ألا أيهـــا الســـائلى جاهداً ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى ، وأصلى قريش العجم

وتشير تلك الأبيات إلى ذبذبة الشاعر بين ولائه للعرب وبين تيهه بالعجم ، وتلك ظاهرة عبر عنها خير تعبير شعر البصرة فى هذه المرحلة ، ونراها واضحة مرة أخرى فى قول بشار :

إننى من بنى عُقَيل بن كعبٍ موضعَ السيف من طُلى الأعناق

وقد يتبرأ من هذا الولاء فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضُهم
مولى العُرَيب فخـــذ بفضلك فافخرِ
مولاك أكرم من تميم كلهـــا
أهل الفعال ومن قريش المشعرِ [٣]

مثل هذا العار يتردى فيه بشار ، ويعيب الناس عليه ، ولا يسلم منه شاعر من شعراء التجديد . فهم محيرون وشعرهم يسجل حيرتهم ، أين هم من المغلوبين العرب الصرحاء ؟ إنهم لا يزالون بعيدين عنهم ، فليس من بأس إذن والحال تلك أن ينتسبوا إلى العرب ، وما عليهم ضر إذا دخلوا فيهم كما فعل

---

(١) الأوراق ١٣
(٢) الأغانى ٣ : ١٣٨
(٣) السابق ٣ : ١٣٩

الفضل الرقاشى فقال فيه أبو نواس :

يا عربيًّا بصنعة السوق وصنعة السوق ذات تشقيق
ما رأيكم يا نزار فى رجل يدخل فيكم من خَلْق مخلوق[١]

ولقد لَجَّجَ أبو نواس فى هذه الناحية تلجيجًا عجيبًا أثبته ديوانه . ومثل هذا ليس بالفريد فى بيئة عاش فيها العرب سادة ردحًا من الزمن ثم عزت أعاجم فانتسبوا لهم . وأيام العباسيين الأولى لم تكن للموالى كلها ، ولكن أبا نواس يجد فى الادعاء مسبة فيصرح بها بينما لا ينجو منها أحد ، وإلا فلنسمعه يقول فى الهيثم بن عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب الهيثم بن عدى صار فى العرب
يا هيثم بن عدى لست للعرب ولست من طيء إلا على شغب
لله أنت فما قُرْبَى تهمُّ بها إلا اجتلبت لها الأنساب من كثب
فلا تزال أخا حلٍّ ومرتحل إلى الموالى وأحيانًا إلى العرب[٢]

ولكن الموقف يقتضى أبعد من ذلك ، يقتضى حاجة أعمق كثيراً من مجرد كلام ، فلقد سيم العجم الضيم زماناً وآن الوقت لأن يقول فيهم الشاعر نفسه :

إذا ما تميمى أتاك مفاخراً فقل عدِّ عن ذا ، كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهة وبولك يجرى فوق ساقك والكعب
إذا ابتدر الناس الفعال فخذ عصا ودعدع بمعزى يا ابن طالقة الذَّرْب
فنحن ملكنا الأرض شرقاً ومغربًا وشيخك ماءٌ فى الترائب والصلب[٣]

وكان بشار قد سبقه إلى هجو العرب حين صاح فى أعرابى عند سيد من سادة العرب استأذنه فى هجائه فقال[٤] :

---

(١) ديوانه ٥٢٤
(٢) السابق ٥٢٤
(٣) السابق ٥١٠
(٤) الأغانى ٣ : ١٦٦

سأخبر فاخرَ الأعـراب عنى وعنـه حين تأذنُ بالفَخَار
أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمتَ الكرام على العُقـار
تفاخر يابن راعيـةٍ وراع بنى الأحرار ، حسبك من خَسار

علام تدل هذه الظاهرة ؟

تدل على شيء جديد ، هو أن نفوذ غير العرب قد أخذ يتسع ، وعلى أن الكيد والتدبير اللذين ألقى بذرهما فى العصر الأموى قد أثمرا وأغنيا فى أمر الأعاجم ما لا تغنى الحرب ، وأن الفارسى مثلاً قد وجد متنفسًا ليسيء إلى الذين أفسدوا عليه حياته قبل ، وأنه يستطيع أن يجر عليه من المغارم المعنوية شيئًا غير قليل . لذلك شاع هجاء العرب من غير العرب فى الوقت الذى انتسب فيه إليهم الهجاؤون أنفسهم . رأينا ذلك عند بشار ، ونراه الآن عند أبى نواس ، وهو الذى ادعى أولاً أنه من بنى تيم اللات ثم تحول عنهم إلى النزارية ، ولكنه لا يقنع ويروح يدعى اليمانية . ومن هنا لم يستطع الرقاشى أن يضيع تلك السانحة فقال يهجوه :

نبطى ، فإذا قيـل له : أنت مولى حكم ؟ قال : أجل
هو مولى الله إذ كان به لاحقًا فالله أعـلى وأجـل
واضـعًا نسبتـه حيث اشـتهى فإذا ما رابه ريب رحـل

ولعل الشاعر كان يكره مثل هذا الشتم فانبرى يقول مفاخراً بنسبه فى حكم :

أتشتم خير ذى حكم بن سـعد لقـد لاقيت داهيـة نآدا
سببتَ ابن الحديج فَسَبَّ ظلى لعمر أبيك لا استوفى وزادا[1]

وكان هو قد سبّ الرجل الكندى فاعتذر بقوله :

فأقسم ما جـاوزت بالشتم والدى وعرضى وما مزقت غير أديمى[2]

---

(١) ديوانه ٥٣٣
(٢) السابق ٦٠٧

وكان اعتذاره اعتذاراً لنفسه ولولاه ولكندة كلها ، بل كان هذا الاعتذار صدى لما قاله لأبى منذر الكلبى النسابة :

أبا منذر ما بال أنساب مذحج مرجَّمـــة دونى وأنت صديقى[١]

ومذحج كما تعرف قبيلة كبيرة من قبائل اليمن، فرع من ذلك العنصر الذى تعصب له على عدنان :

فافخر بقحطان غير مكتئب فحاتم الجـــود من مناقبهـــا[٢]

وفى هذا الصدد ترى ابن مناذر وكان مولى لبنى صبير بن يروع يفتخر بتميم كلها فيقول أمام الرشيد :

قومى تميم عنـــد السماك لهم مجـــدٌ وعزٌّ فما ينـــالونا

ويبدو أن الأمر لم يرق أحداً من الجالسين فقيل : هذه حماقة بصرية[٣]! إلا أنها ليست تخلو من دلالة على تلك التى اضطرب بها الشعراء البصريون حتى لهجوا بها أمام الخلفاء ، وحتى أصبح من المألوف أن تذكر الأثبات القديمة شيئاً عن تلك الذبذبة التى تدل على الحيرة والقلق[٤].

والحياة تسير ، والنظر إلى الماضى يفرض على الجميع أن يبحثوا عن أصلهم حتى لقد كثر الادعاء إلى كسرى بين الفرس ، فقال جحظة :

وأهل القرى كلهم ينتمـــون لكسرى ادعاءً فأين النبيط[٥]

ولا نريد بعد أن نزيد . فشعر البصرة يدلنا على أنه تأثر فى اندفاعه نحو طريقه بسوء ما كان يضمر الموالى ، وأنه إذا لم يخالف الشعر الذى لهجت به الكوفة أو اضطربت له بغداد فلأن المؤثرات كانت واحدة ، والضغن أكبر من مكر الخليفة أو الأمير ، والانقلاب العباسى نفسه قد هيأ الفرصة لتظهر

---

(١) ديوانه ٦٠٢

(٢) طبقات ابن المعتز ١٩٦

(٣) الأغانى ١٧ : ١٧

(٤) راجع كذلك على سبيل المثال الحسين بن الضحاك فى الأغانى (٦ : ١٦٥)

(٥) محاضرات الأدباء ٢ : ٢٢٣

الشعوبية عقدها الكثيرة . وسنرى فى الصفحات التالية كيف تلون الشعر بتلك النزعة المدمرة !

وأما الآن فنحن نسرع إلى شيء يتصل بتلك الظاهرة التى وقفنا عندها ، نسرع إلى بعض الهجاء الذى يمكن أن يكون تفاعلاً بما كان . فالأمر لا يجدى ما دمنا لا نعرض لهجاء الشعوبية للعرب . والظاهرة الفذة أن الذين حملوا تلك الحملة شعراء استهتروا بالمجون ولم يكونوا عربًا . كان ذلك فى البصرة ، فى حين رأينا بالكوفة من الذين أخذوا أنفسهم باللهو والخلاعة شعراء عربًا كمطيع ابن إياس وكان من كنانة ، وكوالبة بن الحباب وكان من بنى أسد .

ومهما يكن فإنَّ من المحقق أنَّ شعراء البصرة كانت ظروفهم تدفعهم دفعًا إلى الهجاء ، فهم موال قبل كل شيء ، وهم بعيدون عن مركز السلطان ، وهم لهم عقلية البصريين المتحررة المتوثبة ، وهم فى اعتزازهم بسلطان الوراثة والوجدان والقوة السياسية الجديدة يمسون شغاف العباسيين ويرضون آل برمك . نستطيع أن نستثنى شعراء من ذلك ، كأن يكونوا ماتوا قبل أن تقبل الدنيا على البرامكة ومن هؤلاء بشار . وكأن يكونوا مدفوعين بأسباب تتصل بأشخاصهم ، وقد عرفنا أبا نواس كارهًا لهؤلاء مقبلاً على الأمين العربى !

فأما هجاء العرب فحسبنا أن نسمع بعض أبيات لبشار هجا بها أحد العرب يقول فيها :

تريغ بخطبة كسْرَ الموالى ... وينسبك المكارمَ صيدُ فار
وتغدو للقنافذ تدّريها ... ولم تعقل بدرّاج الديار
وتتشح الشمال للابسيها ... وترعى الضأن بالبلد القفار[1]

إنه يشير إلى حياة العرب فى صحرائهم قبل أن يندفعوا اندفاعتهم الهائلة ، ويدل عليهم بأنه لم يكن كمهجوه يصيد الفيران ويختل القنافذ ويرعى الضأن .

---

(١) الأغانى ٣ : ١٦٧ وتدريها : تخدعها ، الدراج : القنفذ .

هذه الأمور التى جعلت الشعوبية تطل برأسها عنيفة هوجاء ، فيؤلف أبو عبيدة معمر بن المثنى البصرى كتاب « لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » وكتاب « فضائل الفرس[١] » .

ويذكرنا كتاب فضائل الفرس بضرورة الإشارة إلى مدحهم من جانب الشعراء الذين هجوا العرب ، وقصيدة بشار التالية خير مثال على ذلك ؛ فهو بعد أن يقرر فى صراحة بأن كسرى كان جده ، وساسان كان أباه وقيصر خاله يصف حضارة قومه ، ويقارن بها بداوة العرب ، ثم يحاول أن ينفى تهمة الزندقة التى أصبحت فى عصره خطراً هائلا :

جدى الذى أنتمو بـــه كسرى وســاسان أبى
وقيصرٌ خـــالى إذا عـــددت يومًا نسبى
كم لى وكم لى من أب بتـــاجـــه معتَصِب
أشْـــوَسَ فى مجلســـه يُجْثَى لـــه بالركب
يغـــدو إلى مجلســـه فى الجوهر الملتهـــب

ويستمر حتى يقول :

ولا حـــدا قطّ أبى خلف بعـــير جَرَب
ولا أتى حنظلـــة يثقبهـــا من ســـغب
ولا أتى عُـــرفُطـــةً يخبطهـــا بالخشب
ولا شَوَيْنـــا ورَلاً منَضْنضًـــا بالذنب
ولا تَقَصَّعْتُ ولا أكلت ضب الحِزَب

والقصيدة طويلة يختمها بصرخة يصورها بيته التالى :

نحن ذوو التيجان والـ ـملك الأشم الأغلب[٢]

هكذا كانوا وكذلك كان العرب ... صورتان متناقضتان أبعد مايكون التناقض ، ليس فيهما تمثيل لعواطف وإنما فيهما تصوير لحياة ، ولكنا نحس

---

(١) راجع الفهرست ٥٤

(٢) ديوانه ١ : ٣٧٧ منضنضاً : متحرك الذنب ، الحزب : الأراضى الغليظة.

التيه والاستعلاء حين يقدر بشار أنه لم يكن من قوم يحدون خلف البعير ولا . . . ولا . . . إلخ !

على أن هناك شعراً روى الحياة العربية القديمة بتفاصيلها ، ولا نعنى بهذا الشعر مقدمات بعض القصائد ، وإنما نعنى به ما نُحل المتقدمون على يد أمثال خلف الأحمر . وقد كان هذا الراوية البصرى بالذات واحداً ممن قدروا على اصطناع الشعر على لسان القدماء . وقيل إن لامية العرب من نظمه ، كما أن هناك لامية أخرى نحلها تأبط شرًّا ، وفى القصيدتين من روح البادية ورسومها وشخوصها مالا نحتاج معه إلى الوقوف عنده والتنبيه إليه . وابن قتيبة يقول عنه « وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين ويكثر قول الشعر فى وصف الحيات وأراجيزه فى ذلك كثيرة[١] » .

ومهما تكن قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية فهو قد ألقى كثيراً من الضوء على ما دق من حياة البادية ، فإذا عدوناه إلى منحى أبى نواس الفنى رأينا الشىء الكثير ؛ فلقد كانت الصورة الفنية فى شعر النواسى حافلة بالمادة القديمة — عربية أو فارسية — حفولها بالمادة الحديثة . كان إطاره الفنى يتسع لرواية حياة العرب فى سخرية لاذعة ، كما كان يتسع لرواية حياة الفرس فى تيه ملح ، لقد كان يقول :

فهذا العيش لا خيم البوادى ... وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزُّروب[٢]

ويقول :

عاج الشقى على دار يسائلها ... وعُجْتُ أسألُ عن خمارة البلدِ
لا يُرقِىء اللهُ عينى من بكى حجراً ... ولا شَفَى وجدَ من يصبو إلى وتدِ
قالوا ذكرتَ ديار الحى من أسد ... لادَرَّ درُّكَ قُلْ لى من بنو أسدِ

---

(١) راجع أمالى القالى ١ : ١٥٦ والشعر والشعراء ٧٦٥
(٢) ديوانه ١٢ والزروب : موضع الغنم .

وَمَنْ تميمٌ ومن قيسٌ وإخوتُهم ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحدِ (١)

ويقول :

غادِ المدام وإنْ كانتْ محرَّمةً ... فللكبائر عند الله غُفرانُ
ببلدةٍ لم تصلْ كلبٌ بها طُنُبًا ... إلى خباءٍ ولا عبسٌ وذبيان
ليستْ لذُهل ولا شَيْبَانِ بها وطنًا ... لكنها لبنى الأحرار أوطان
أرضٌ تبنَّى بها كسرى دساكرَه ... فما بها من بنى الرَّعناءِ إنسان
وما بها من هشيم العُرْب عرفجةٌ ... ولا بها من غذاء العرْب خُطبان
لكنْ بها جلنار قد تفرَّعه ... آسٌ وكلّه وردٌ وسوسان
فإن تنسمْتَ من أرواحها نسمًا ... يومًا تنسَّمَ فى الخيشوم ريحان (٢)

ويقول :

وإذا أنادم عُصْبةً عربيةً ... بَدَرَتْ إلى ذِكرِ الفخار تميمُ
وعدَتْ إلى قيس وعدَّتْ قوسَها ... سُبِيَتْ تميمُ ، وجمعُهم مهزوم
وبنو الأعاجم لا أحاذرُ منهمُ ... شرا فمنطقُ شربهم مذموم
لا يبذَخون على النديمِ إذا انْتَشَوْا ... ولهم إذا العُرْب اعتَدتْ تسليم (٣)

ويقول :

دع الرسم الذى دَثَرا ... يقاسى الريح والمطرا
ألم ترَ ما بنى كسرى ... وسابورٌ لمن غَبَرا
منازه بين دجلة والـ ... فراتِ تفيأتْ شَجَرا
بأرض باعد الرحما ... نُ عنها الطلحَ والعُشَرا
ولم يجعل مصايدَها ... يرابيعًا ولا وَحَرا
فذاك العيش لا سيدا ... بقفرتها ولا وبَرا (٤)

---

(١) ديوانه ٤٦
(٢) ديوانه ١٢٧ الطنب : حبل يشد به الخباء ، بنى الرعناء : بنى الحمقاء وهم العرب .
(٣) ديوانه ١٩٤ وعدت قوسها : ذكرتها من مفاخرها ، لا يبذخون : لا يتكبرون .
(٤) ديوانه ٥٥٧ والوحر : دويبة سامة ، الوبر : دويبة كالسنور .

يقول ذلك فى صراحة وفى جرأة فيؤثر أن يكون عنيفاً ما شاء له العنف ، ويختار أن يسىء إلى العرب عامداً ، فيظهرنا على ما كان سائداً العصر من مكر وتربص وغدر ، وما شاب الأواصر والعلاقات بين الأفراد والجماعات من شنآن وسوء وانحلال . بحيث قد شق على الموالى أن يخلصوا للعرب ، وبحيث قد عجزوا عن اصطناع الأمانة فى الوفاء لهم ، فوق ما وقع من النفور والضغينة . فإذا أضفنا إلى فساد الأواصر ما قدمنا عن طبيعة الحياة ومركز العرب فى المدينة العجيبة وتلون الشخصيات وتحرر الأفراد وتعرض لثوارات دائمة ، إذا أضفنا هذا كله إلى فساد ما وقفنا عنده أدركنا كم يمكن أن يلحق الحياة الاجتماعية العامة من وهن وتفكك !

كان أبو نواس يذم القديم ويسب العرب لأنهم كانوا يدعون إليه ويخلصون له . وكان يبالغ فى مدح الجديد ويمدح الأعاجم ، لأنهم كانوا يحثون عليه ويأخذون به . كان متبرماً بالعرب ، فكشف عن عوراتهم وصوّر حياتهم فى سخرية وتهكم ، وكان محباً للأعاجم والفرس بخاصة فصوّر آثارهم فى تيه واستعلاء وكبر . هو أعطانا صورتين متناقضتين للعرب وللفرس ! ثم لخص مذهبه فى الحياة ، بل لعله لخص مذهب الشعراء الذين حملوا لواء الفن فى البصرة إبان انتفاضة الشعوبية ، نقول لخص المذهب فى البيتين التاليين (١) :

معــاقرة المدام بوَجْــه ظَبْيٍ حَوَى فى الحُسْن غايات الرهان
ألذُّ إلىَّ من عيس بِوَادٍ مع الأعراب مجدوبِ المكانِ

تلك الصورة ظهرت فى الشعر الجديد ناضجة متقنة دقيقة ملحة فى سرد التفصيلات ، لأنها لم تتكلف إلا موافقة الشعوبية . لم تشأ مصانعة السياسة ولم تهتم بما قد يقع ، ولذلك جحدت ماضى العرب كله وتغنت بمجد الأعاجم جميعاً ، ولذلك أيضاً حكم على أصحابها أن يتمسحوا بأمير أو خليفة يجدون عنده الأيد ويستمدون منه القوة . وما نظن أن علاقة أبى نواس بالأمين لم تضف عليه ما أراد

---

(١) ديوانه ١٠٣

من سلام وطمأنينة فقال ما قال .

على أن التجاء هؤلاء الشعراء إلى الأمراء والخلفاء الذين أجلوهم واحتموا بهم لم يعصم نفوسهم أن تزهق ، وحريتهم أن تقيد ، فقد كان الكيد يبلغ حداً لا لا يحتمل معه السكوت .

(٢)

ونمضى إلى الخط الثانى الذى يحدد شيئاً آخر من حساسية العصر ، نعنى تفاعل الشعراء بما هو كائن ؛ فيصورون بشعرهم لحظات الحياة القائمة ويمثلون ما تمتد إليه حواسهم وما تحسه أفئدتهم ؛ فتضطرب له ، وتتغنى به .

ولما كان الأثر الأدبى — من حيث هو صورة من صور الفن — لا ينفصل عن الكيان الاجتماعى بأية حال ، بل هو فى الحق أحد عناصر بنائه[١] ، فإن الأديب عند ما يعبر يختار بالضرورة مادته من علاقات هذا المجتمع المتفاعلة . والأمر لا شك يكشف فى داخله عن موقف محدد من الشعوبية ، عن حركة التطور الاجتماعى فى ظل مذهب سياسى جديد .

ولسنا فى حاجة إلى شرح جديد للموقف فى ذلك الحين ، فقد فرغ القول فيه وأصبح الآن أمامنا قوتان تتصارعان فى سبيل البقاء : قوة العرب وقوة الفرس ؛ قوة محافظة تعتز بلغتها ودينها ، وقوة ثائرة ساخطة تريد تدمير كل الأوضاع القائمة !

ووقف الفرس فى الجانب الثائر ، يمتثلون لأمر الخلفاء ، فلا يشغلون أنفسهم فى الظاهر بالسياسة[٢] ، ويعكفون على أنفسهم فى تحقيق أوسع ما يحققونه من الزندقة واللهو والعبث وبث الشك وإيقاظ الفتنة .

---

(١) Art and Society, London 1946, P. 2,3,5

(٢) يفسر هذا ضعف الشعر السياسى الذى ازدهر أيام الأمويين .

لونوا الفكر هذا اللون وحددوا مفهوم الثقافة بهذه الحدود ، وصارت الشعوبية انعكاساً للعمل الاجتماعى الشاذ الذى يبذلونه ، وعبر الأدب ــ الشعر منه بخاصة ــ عن يقظة الشعوبية فى ظل الزندقة .

وكان الخط واضحاً ، استغلت الأخلاق فيه أسوأ استغلال . وكان تحطيم قيمها ببعث التقاليد الفارسية ، الثغرة التى نَفَذَ منها الموالى إلى ما يريدون . ومن هنا لم يَعْدُ طه حسين الحقيقةَ حين اعتبر مجونَ العصر العباسى مذهباً سياسياً[1]، بل لقد أوضح فكرته فى حديثه عن الزندقة فقال : « لو أنى أردت أن أشخص هذه الزندقة تشخيصاً أدبياً لقلت : إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص ، هى ضرب من هذا السخط ، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم ، وماذاع فيهم من عقيدة دينية[2] » .

هكذا كان الموقف فى البصرة ، وهذا هو واقع المصر المادى ، وليس من سبيل إلى إنكاره ولا إغفال دلالته الموضوعية فى جوانب الشعر كافة ، وقد يحدث أن يتوقف الشعراء ليصوروا حدثاً مفاجئاً أو غزواً عارضاً ، بل قد يحدث أن يمدح الشاعر فيصطنع الأسلوب القديم ، إلا أن ذلك كله لم يعوِّق سير الحياة ، ولم يتغير الموقف طَوَالَ المرحلة التى نؤرخ لها .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نجعل للشعر مظاهر عبر بها عن حياة العصر كله ، مظاهر مختلفة كانت فى الحق ثمرة الوضع الاجتماعى العام ؛ فهناك شعر يصور حالة الشك التى انتابت المصر وكان من مظاهره العبث بالدين ، وشعر يصف اللذات وشعر يصف الفاقة ، ثم شعر المناسبات وهو كثير .

---

(١) راجع حديث الأربعاء صفحة ٩٠

(٢) حديث الأربعاء ١٦٢

المظهر الأول :

ذكرنا فى الباب الأول أن طبوغرافية المصر كانت تدفعه إلى التقلّب دفعاً ، وكان لاختلاف الأجناس التى استقرت فيه أثره فى انفتاح الفكر على عقائد مختلفة ، وأخذت المادية التى عرف بها شعب يؤمن بذاته لأنه شيد كيانه فى ظل أرستقراطية ظالمة ، أخذت هذه المادية تلعب دورها فى تقديس دور الحواس فى المعرفة !

فالدهريون ينكرون أن للعالم مدبراً ويسخرون من أن يكون ثمة مخاريق للأنبياء ، والباطنية ترفض المعجزات ولاتؤمن بنزول الملائكة من السماء على أى نحو ، والمعتزلة يحكمون العقل ويرفضون كثيراً مما أجمع الناس على صحته . والناس بين هذه الطوائف بين مصدّق ومكذّب ، بين مؤيد ومُنْكر ؛ فثمة نقاشٌ وجدل ، وثمة بلبلةٌ وشك ، وإذا النظام يلخص تجربة العصر كله فى هذه العبارة « تعلم الشك » لأنه سبيل إلى المعرفة « ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك[1] » .

وقفنا عند مثل ذلك طويلاً ونحن فى سبيل عرضنا الاتجاهات التى غلبت على العقل البصرى ، وفى السطور التالية سنرى إلى أىّ حدٍّ أطلت هذه الظاهرة من خلال الشعر ، وإلى أىّ مدى استغلها الشعراءُ وصوروها .

والأمر على أية حال شديد الوضوح ؛ ففى سير الشعراء الكثير من ألوان الشك والعبث بالدين ، فبشار وابن مناذر وأبو نواس والخليع والرقاشى وابن يسير وغيرهم عَبُّوا ما شاءوا من الحياة المادية ، وحفل شعرهم بالكثير مما لم يكن من طبيعة المصر أن يأخذ به ، وكأنما كان قراء البصرة ونساكها يدفعون الحياة دفعاً إلى غير ما يرجون .

كنا نرى فى العصر العربى الخالص الحسن البصري وصلة بن أشيم وعثمان بن

---

(١) الحيوان ٦ : ٣٦

أدهم وموركًا العجلى[١] وكنا نسمع من يقول من أهل البصرة : الدنيا ما مضى منها فحلم وما بقى منها فأمانى[٢] ، ومن يقول : المؤمن إذا جاع صَبَرَ وإذا شَبِع شكر[٣].

كنا نرى ونسمع ذلك فيخيل لنا أننا مقبلون على عصر يمجد النسك تمجيداً مطلقًا ، ويتعبد لروحية سمحة . إلا أن مادية المدينة كانت تؤيد أنّ كل ذلك ليس إلا ردّ فعل لاستجابة الحياة نفسها ، بل ربما نجَمَ عنها هذا الصبأ الذى أثر عن أدباء مشهورين كابن مناذر وابن يسير على سبيل المثال .

والأخبار تروى أن ابن مناذر كان ناسكًا محدثًا ورعًا ، وكان مستوراً حتى علق بشاب من ثقيف فانهتك به ستره ولم يتعظ بوعظ المعتزلة[٤] غير أنه مع ذلك لم ين يذكر الله مستسلمًا لقضائه :

يحكم الله ما يشاء فيمضى ليس حكم الإله بالمردود[٥]

وفى ساعات الحرج من حياته وهو بعيد عن البصرة يرثى صديقًا له جاوره فى مكة فيقول فى يسر :

إن الذى غـــدر بالمنحنى هدّ من الإسلام أركانا[٦]

وذلك اعتراف صريح بما آلت إليه روح ابن مناذر ، فهو شاعر سريع التأثر وخليق بمن عاش فى البصرة ومرّ بظروفه نفسها أن يفقد الوازع الدينى ، إلا أنه ضيع نصف إيمانه وهو يسعى للعلم بين المربد ، ومسجد البصرة ، وحلقات الدرس والتعليم ! ضيع نصف إيمانه حين تطلع إلى عبد الحميد الثقفى

---

(١) لهم سير وأخبار ومنثور كلام فى البيان والتبيين وفى طبقات ابن سعد ، وراجع ذكرهم فى باب القصص من هذا الكتاب .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٣٦

(٣) السابق ٣ : ١٥٢

(٤) راجع الأغانى ١٧ : ٩ ، ١٠ وطبقات ابن المعتز ١٢٠

(٥) الأغانى ١٧ : ٢٥

(٦) السابق ١٧ : ٢٧

الذى علق به فوجد أن الجمال واللذة ومتاع الدنيا خير ما يأخذ به ، وراقب الزنادقة فأعجبته حياتهم ، وربما اشترط لهذه الزندقة شروطاً ، وحين لا يجدها فى محمد بن زياد ينفيه عن صحبته ويقول[1] :

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ وفى باطن إسلام فتى عَفّ
لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرفِ

وأما ابن يسير الذى كان معاصراً للجاحظ فإن شعره يكشف بدقة عن البلبلة العجيبة التى عاشها المصر ؛ فهو مرة ماجن ، وهو مرة أخرى متنسك ، وهو كافر بكل شىء أحياناً ، وأحياناً أخرى مؤمن بالعلم وقوته[2] .

وسواء أصح ما ذهبنا إليه أم لم يصح فإن البصرة عرفت كثيراً من ابن مناذر وابن يسير ، بل كان أغلب شعرائها زنادقة بالمعنى الذى أراده لهم ابن مناذر وبالمعنى الذى ينسحب على المجون واللَّهْو والعبث بالدين ، ووراء ذلك الشك الذى يعصف بالعقيدة ويدمر الثقة .

فلقد روى أن أبا نواس كان فى جماعة من أصحابه يذكرون ذنوبهم ، وهو ساكت لا يقول شيئاً ، فلما نبهه واحد منهم أنشد يقول له :

يا ناظراً فى الدين ما الأمر لا قَدْرٌ صَحَّ ولا جبرُ
ماصح عندى من جميع الذى تَذْ كُرُ إلا الموت والقبرُ

والعجيب أن صحبه يعتبون عليه ذلك ، وهددوه بالهجران إن لم يكن يرجع عن هذا الشك ، ويترك الكفر لأصحابه ، فقال معتذراً فى قصيدة أخرى جاء بها :

من اتَّقَى اللهَ فذاك الذى سيق إليه المتجرُ الرابح

---

(١) الأغانى ١٧ : ١٥

(٢) راجع الحيوان ١ : ٥٩ ، ٩٤ ، ٩٦ ، والأغانى ١٢ : ١٢٤ ، الشعر والشعراء ٨٥٤ وما بعدها .

(٣) راجع أخبار أبى نواس ٣٧ ، ٣٨

أعلن الحسن تقواه ، فهل أعلن إقلاعه عن الشك ؟

إن حياته كلَّها تؤكد أنه ظل سادراً فى غيِّه إلى ما قبل أن يموت إن صَدَّقْنَا ما قيل عن توبته فى أخريات أيامه ، ولم يستطع بأعماله أن ينفى قيام الشك فى نفسه ، بل لم يستطع إلا أن يقول :

ودع القَــراةَ لأهلهــا فَهُمُ : الكرابَ على البَقَرْ
إن التنــسك عــندنا والزُهد من إحدى الكبر[1]

فيضيف إلى ملامح صحبه بعد ما قدم ابن مناذر ولعهم بالفجور ودعوتهم إلى ترك التنسك ، ثم يلخص مذهبه فى الحياة بهذين البيتين التاليين اللذين قالهما فى مجلس منصور ابن عمار أحد وعاظ البصرة :

لم أبك فى مجلس منصور شَوْقًا إلى الجنــة والحور
ولا لذكر النــار من حرها أجل ولا لنفخة فى الصور[2]

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يرويه الرواة عن توبته الأخيرة لمسنا هذا اليأس العاصف بسنوات الشاعر ، فهو منكر حياته الثانية إنكاراً لا مزيد عليه ، وهو يائس من البعث والنشور ، وهو لا يطلب ثواباً ولا يخاف عقاباً ، وهو لا يؤمن إلا بأنه سيموت وإلا بأن هناك قبراً سيوارى فيه .

وإذا تركنا ذلك الشاعر إلى أبان اللاحقى قيل لنا إنه كان متألهًا حسن التَّدين ولكنه لم يكن يستطيع أن ينكر صلته بزنادقة البصرة والكوفة[3] ، وَشكَّ الناسُ فى أمره حتى قال له صديقه الشاعر البصرى المعذل بن غيلان :

رأيت أبانا يوم فطــر مصليًــا فَقُسِّمَ فكرى واستفزنى الطربْ
وكيف يصلى مُظْلِمُ القلب ، دينُه على دين مانٍ ، إنْ ذاك من العَجَب[4]

---

(١) أخبار أبى نواس ٥٩ والقراة : التنسك ، الكراب على البقر : مثل يضرب فى تخلية المرء وصناعته من قولك «كربت الأرض» إذا قلبتها للزراعة ، وفى أساس البلاغة كربت الأرض كراباً ، وهو من بقر الكراب

(٢) أخبار أبى النواس ١٠٤ ، ١٠٥ (٣) راجع الأوراق ٢ ، ١٠

(٤) الأوراق ٧

وأبو نواس يحكى عنه أنه كان معه ذات يوم بعد صلاة ، قال :

فقلت : سُبْحانَ ربى فقال : سبحانَ مانى
فقلت : عيسى رسولٌ فقال : من شيطان
فقلت : موسى كليمُ الـ ـرُهَيْمن المَنَّان
فقال : ربك ذو مقـ ـلة إذن ولسان
أنَفْسُه خَلَقَتْه أم مَنْ ؟ فقمت مكانى
عن كافرٍ يَتَمَرَّى بالكُفْر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان[1]

وكان بشار يعتب عليه ذلك ، بل كان ينكر عليه وعلى أصحابه حياتهم العابثة بالدين[2] وهو نفسه يأخذ بها ويشك فيما أنزله الله ، فليس بدّ إذن من أن نعرض لشيء مما قال فى ذلك ، فقد أنشد :

إبليسُ أشرف من أبيكم آدم فتبينوا يا معشرَ الأشرار
النارُ عنصره وآدمُ طينة والطينُ لا يسمو سُمُوَّ النار

وظاهر البيت يوهم أنّ بشاراً يشك فى الكينونة كلها ، أىّ فى حقيقة الإنسان فى آدم ! ويفضل النار ابتغاء مرضاة إلهٍ يتعبد له هو كما تقول طائفة من القدماء ، فإذا زِدْنا أنه أعلن رأيه فى الرجعة للناس وكفّر جميع الأئمة وصوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، وقال :

الأرض مظلمةٌ والنار مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذْ كانت النار

إذا فعلنا ذلك لمسنا إلى أىّ مدى تردّى الشاعر ، وروى أن واصل بن عطاء سمعه فسَبَّه ، فراح الشاعر يهجوه ويلح فى هجائه .

تلك كانت مظاهر الشك عند شعراء البصرة فى هذه الحقبة ، بل عند شعراء

---

(١) ديوان أبى نواس ٥٤٣ ، ٥٤٤
(٢) راجع الأوراق ١٠
(٣) الأغانى ٣ : ١٤٥

العصر كله . أما تصوير الصفاء النفسى فى ظل حياة روحية جادة فكان عند أبى العتاهية فى الكوفة[١] . لم تستطع البصرة أن تخلق مثل أبى العتاهية وإن قدمت صالح بن عبد القدوس ، ولم تستطع إلا أن تدفع للحياة هؤلاء الشعراء العابثين بالقيم والتقاليد .

كانت البصرة بميلها إلى التحرر ، قد دفعت أبناءها وراء الحدود المألوفة . بينت لهم أن الطريق أبعد مما يرسمه العلماء الأتقياء فاستهتروا . عبث بشار ومجن وشرب الخمر ووصف الحرمات ، وتهتك ابن مناذر وقذف المحصنات ، وأغرق سعيد بن وهب فى التشبيب بالغلمان وخاطب الجوارى بالخنى ، وتغزل أبو نواس الغزل الشاذ وأغرق فى شرب الخمر ووصفها ، وأمعن الرقاشى فى شكه فانتهى أمره بوضع وصية لأصحابه يدخرونها لوقت الموت ويأمرهم فيها باللواط وشرب الخمر ولعب القمار[٢] ، وأما الخليع فلم يكن دون هؤلاء تحرراً وشمى اسمه لإسرافه فى المجون !

لقد أراد طه حسين أن يصور شك هؤلاء جميعاً فقص قصة بعض مجان العصر حضرتهم الصلاة فأقاموها ، ثم حدث أن أخطأ الإمام — ولعله كان ثملاً — وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فإذ أبو نواس يقول :

أكثر يحيى غلطاً فى قل هو الله أحد

فيرد عليه العباس بن الأحنف :

قام طويلاً ساهياً حتى إذا أعيا سجد

ويكمل الحسين الخليع :

يزحر فى محرابه زحير حبلى بولد[٣]

على أننا نستطيع أن ندل على ما نقول فى سهولة إذا قرأنا أبيات أبان اللاحقى

---

(١) نحن لا نفترض بقولنا هذا أن يكون أبو العتاهية قد تنسك فعلا ، بل لقد أشبه من شعراء البصرة صالح بن عبد القدوس إلى حد ما .

(٢) راجع طبقات ابن المعتز ٢٢٦

(٣) حديث الأربعاء ٢٣

التى كتبها لمعاذ بن معاذ عقب توليه قضاء البصرة ، يقول فيها[١] :

يا معـــاذُ بـــنَ معا ذِ الخير يا خير حكيم
قد تهيَّا الـــلاحقيـ ـون وأصنـــافُ تميم
لزمـــوا مسجـــدنا فى ضيقـــه أىّ لـــزوم
شمروا القمص وحكوا موضع السجـــد بثـــوم
كلهـــم يأمـــل أن تو دعَـــه مـــالَ يتيـــم

فهى تشير كما قدمنا إلى المعبود الجديد . . المال ! وتقرر أن القربان إليه نفاق بالدين ، نفاق يتعدى الشعراء إلى معظم القوم ، وليس اللاحقيون إلا بعض الذين يتوسلون بالدين إلى تحقيق مطامعهم ! فالحياة الجديدة تطلب ذلك . إن حياة البصرة القائمة على التجارة والمادة والكسب تمجد المال ، وفى سبيل تمجيد المال تشك فى الدين وتعبث به ، وتسخر منه .

وإلا فلنعد نقرأ من جديد ما أثير حول حارثة بن بدر الغدانى من حبه للمال وتعوُّده سرقته لنرى من ظروف ما يُروَى أن الخيانة كادت تصبح شريعة العصر منذ عهد مبكر ، وأصبح من المألوف أن يبيع الشخص دينه فى نظير قضاء حاجته ، يتساوى فى ذلك العامة الدهماء والنساك القراء ؛ فالثعالبى يذكر أنَّ شهر بن حرشب المحدث الناسك دخل بيت المال ذات مرة فأخذ خريطة فيها دراهم فقيل فيه :

لقد باع شهرٌ دينَه بخريطة فمن يأمن القراء بعدك يا شهر[٢]

فكيف إذن بالشعراء وهم فى عقيدتهم لين ؟ إن الأمر لا يحتاج إلى مزيد من الإعادة ، فإن الإسراف فى المادية ونوع الحياة فى المدينة وعُقَدَ الفرس وَضَعْفَ الأخلاق وانحلال النظم . كل أولئك أدَّى إلى ذلك الشك المدمِّر ، وسنرى بَعْدُ شيئًا آخر من حساسية العصر .

---

(١) الأوراق ٢٨ .

(٢) ثمار القلوب ١٣٣

المظهر الثانى :

أما هذا الشيء فتلك الخاطر الهائلة التى صَوَّرَها شعْرُ البصرة فى مبادرة اللذة واجتناء المسرة . وهنا تبدو لنا صفة أخلاقية هامّة لا يمكن أن نقصرها على الكوفة وحدَها كما اعتاد الدارسون أن يفعلوا ، بل ربما نكون أكثر فهما للموقف إذا آثرنا بها البصرة أولاً ؛ فلقد كان البصريون بنزعاتهم المادية التحررية يعيشون ملء حياتهم ، يغتنمون اللهو فى أخذهم بالرفاهة التى عُرف بها مصرُهم ، وكان الموالى الذين لا يعتزون بحسب ينتمون إليه ولا يلوذون إلا بادعاء مجد قديم ، يعملون عملهم فى إباحة كل محظور ؛ فتحللوا من قيود العرف ووصفوا اللذة ، وفلسف هذه اللذة شعراؤهم ، حتى إذا قال بشار :

من راقَبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِج

أسرع سلم يردد تلك الفكرة فى قوله :

من راقب الناس مات غمًّا ... وفاز بالـلذة الجسـور[1]

وعمل بها الناس ، وأصبحت ناموسًا يعتزون به ويقدرونه ، وأصبحت السبيل ميسرةً لأن يقول أبو نواس فى صراحة :

لا تصحبن اللذات مكتتمًا ... واغـدُ إليها كخالع الرسن[2]

وينسحب قوله على كل شعر قيل فى هذه الحقبة من التاريخ . ويبدو أنهم كثرةٌ هؤلاء الذين تنبهوا — فى إغراقهم فى ماديتهم — إلى فكرة الفناء الوشيك ، فعمل كل واحد بما أعلنه شاعر اللذة الأكبر بقوله :

رأيت الليالى مرصدات لمدتى ... فبادرت لذاتى مبادرة الدهر[3]

لخص هذا الشاعر — وهو أبو نواس لا جدل — فلسفة العصر الجديدة

---

(١) طبقات ابن المعتز ١٠٠

(٢) ديوانه ١٣٤

(٣) السابق ١٣٩

التى أرسى دعائمها كل الشعوبيين ؛ فكانت الحياة قصوراً وجوارى وخموراً وغلماناً وحوراً ، أو كانت على ما يقول بشار « فرصاً . . ليست شعراً كلها ، ولا غناء كلها »[١] .

ولقد رأينا عمران البصرة فيما روته الأثبات القديمة ، وفى « فتوح البلدان » أحصى البلاذرى أشهر قصور المصر فكان منها القصر الأحمر وقصر النواهق وقصر أنس وقصر النعمان وقصر أوس[٢] ، واستمر بناء القصور حتى بعد إقامة مدينة بغداد ، فقد روى أن الرشيد بَنَى فى ضيعة السبيطة قصراً لينزل به[٣] .

وتكتمل صورة الترف بما يروى عما حوته تلك القصور ، وعرضت لطرف من ذلك فى حديثى عن معالم المصر . إلا أن ما يعنينى هنا هو أن كثيراً من الشعراء رُبِّى فى تلك القصور أو على مقربة منها ؛ فبشار كان يقيم فى قصر امرأة المهلب بن أبى صفرة بضيعتها المعروفة بخيرتان مع عبيد لها وإماء[٤] وسلم الخاسر كان ثريًّا ورِثَ مالاً كثيراً أنفقه على الأدب[٥] ، وأشجع السلمى جاءت به أمه إلى البصرة لتطالب بميراث أبيه فيها ، وكان لحُبِّه الترفَ يكترى الخلعة كل يوم بدرهمين فيلبسها أياماً ثم يكترى غيرها[٦] ومحمد بن يسير الرياشى عاش مع أهله فى خطة معروفة باسمهم فى البصرة ، وكان هو يملك داراً كبيرة لها بستان متسع وصفه بقوله[٧] :

لىَ بستانٌ أنيقٌ زاهرٌ ... ناضرُ الخُضْرة ريانٌ تَرِفْ
راسخُ الأعرق ريَّان الثَّرَى ... غَدِقٌ تربتهُ ليست تَجِف

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٣٢

(٢) أوس هو أحد فرسان بكر بن وائل بخراسان (راجع الأغانى ٣ : ١٢٧) .

(٣) فتوح البلدان ٣٦٤ والسبيطة بالبطيحة .

(٤) الأغانى ٣ : ١٣٦ وخيرتان اسم الضيعة نسبة إلى خيرة بنت ضمرة امرأة المهلب .

(٥) الأغانى ٢١ : ٧٣ .

(٦) السابق ١٧ : ٣ ، ٣٤

(٧) السابق ١٢ : ١٢٤

لمجارى الماء فيه سَنَنٌ كيفما صَرَّفْتَهُ فيه انْصَرَف
مشرقُ الأنوارِ ميَّادُ النَّدى منثنٍ فى كلّ ريحٍ منعطف

وعبد الصمد بن المعذل كان بدوره ثريًا يملك داراً بها مثل ذلك البستان الذى وصفه ابن يسير ، وقال عنه :

إذا لم يَزُرْنِىَ ندمانيه خلوتُ فنادمتُ بستانيه
فنادمته خَضِراً مرنقًا يُهَيِّج لى ذكرَ أشجانيه
أرى فيه مِثلَ مدارى الظباء تُطِل لأطلائها حانيه
ونَوْرَ أقاح شتيتَ النبات كما ابتسمت عَجَبًا غانيه
ونرجسُه مِثْلُ عين الفتاة إلى وجه عاشقها رانيه[1]

وليس من سبيل هنا إلى تأكيد تلك الظاهرة بعدُ ؛ فحياة الشعراء فى البصرة كما فى الكوفة وكما فى بغداد تتصل بحياة القصور وما يمتُّ إليها من لهو وعبث ورفاهية . واستطاعت الجوارى أن يملأنها بالنعيم واللذاذة وأسباب الجمال ، وكثرت الخمر وازداد شاربوها ، وشاع الغناء حتى إن المرء لا ينى يقع على مجالس شراب تطل منها وجوه جوار فاتنة وتميس بها خصور غلمان مريضة !

يَرْوى أبو الفرج أن محمد بن أيوب بن سليمان بن جعفر بن سليمان استيقظ مرة فى ثلث الليل الأخير وطلب إلى ابن رباح الشاعر زميل شراب ، فكتب ابن رباح إلى ابن يسير بقول :

يوم سبت وشَنْبَذٍ ورذاذٍ فعلام الجلوس يا بنَ يسير
قم بنا نأخذ المدامة من كفّ غزال مضمَّخ بالعبير

و يستطرد أبو الفرج ذاكراً أن ابن يسير تردد قبل أن يَفِدَ على بيت الأمير وكان ثمّ غيوم ومطر ، واشترط أن يبعث إليه محمد بن أيوب ببرذون وحجام يأخذ من شعره ويصلح لحيته ويعد حمامًا له ودستيجة ضخمة من طيب الراح . ووافق الأمير وجاء ابن يسير ، وما مدت المائدة حتى شدّ الشاعر إلى

---

(١) الأغانى ١٢ : ٥٩

أسطوانة نظيرَ عناده ثم أخلى سبيله بعد أن راح يقول :

أيا عجبًا من ذا التسرى فإنه له نخـوة فى نفسـه وتكابرُ
تَشَـرَّط لما زار حتى كأنه مغنٍ مجيدٌ أو غلامٌ مؤاجر
فلولا ذمامٌ كان بينى وبينَه للطم بشـارٌ قفاه وياسر[١]

والرواية ليست عجيبة ، بل ربما كان فيما يُروَى عن حياة قصور الخلفاء أنفسهم أكثر ما يثير العجب ؛ فقد جعل هؤلاء مغانيهم مأوى للرقيق حتى إن المأمون — وهو الخليفة العالم الرزين — لم يكن يتورع عن التهالك مع جواريه . ويروى أنه جلس فى أحد أعياد النصارى وبين يديه عشرون وصيفة مزنرة مزينة بالديباج ، وأخذ يشرب والوصائف يرقصن أمامه أنواع الرقص[٢] .

ونعود إلى البصرة فنرى بشاراً فى بيته يعقد مجالس الشرب بالليل والنهار وكان له جارة سوداء يقول فيها :

وغادة سـوداء برّاقـة كالماء فى طيب وفى لين
كأنها صيغَتْ لمن نالهـا من عنبرٍ كالمسك معجون[٣]

كما عشق فاطمة وعبدة وطيبة وغيرَهُنَّ ، وفتح مجلسيه «البردان» و «الرقيق» للنساء ، فكن يأتينه ويتحدث إليهن ، ويصور حديثَه لهن فى شعره . وقيل إن واصل بن عطاء لم يعجبه ذلك وانتهز فرصة إظهار مذهبه وقام بذكره وتكفيره[٤] ، كما قيل إن الحسن البصرى — وكان يسمى بالقس — قد عاب عليه ذلك وهتف به حين سمع أن نسوة خمسًا جئنه وشربن معه فقال :

لما طلعـن مـن الرقيـ ـق علىّ بالبردان خَمْسًا
وكـأنهـن أهـلةٌ تحت الثيـاب زففن شمسا
باكرْنَ عِطـرَ لطيمـةٍ وغمسْنَ فى الجادىّ غمسا

---

(١) الأغانى ١٢ : ١٢٥ وفيه ابن بشير وهو تصحيف ، راجع أيضاً طبقات ابن المعتز ٢٨١
(٢) نفسه ١٩ : ١٣٨
(٣) السابق ٣ : ١٩٣
(٤) التذكرة الأدبية ورقة ١٢

لمـا طلعـنَ حفَفْنَهـا وأصَخْنَ ما يَهْمِسن همسا
فسألنى مَنْ فى البيو ت فقلت : ما يؤين إنسا
ليتَ العيونَ الطارفا ت طمِسْنَ عنا اليومَ طمسا
فأصَبْنَ من طرف الحديـ ث لذاذة وخرجن مَلْسَا
لولا تعرُّضهن لى يا قسُّ كنتُ كأنتَ قسا[1]

كان هؤلاء النسوة المتظرفات يدخلن إلى بشار فى كل أسبوع يومين ، وكان يجد المتعة الكاملة فى حديثه معهن ، وكان أحيانًا يفحش ويصور ذلك فى شعره[2] وكان أحيانًا أخرى يحب ويخلص فى حبه ويعف فيقول :

يا قوم أذنى لبعض الحىِّ عاشقة والأذْنُ تعشَقُ قبل العين أحيانا
قالوا: بمن لا ترَى تَهْوَى ؟ فقلت لهم الأذنُ كالعينِ تُوفى القلبَ ما كانا

ويقول :

يزهدنى فى حبِّ عبدةَ معشرٌ قلوبهمُ فيها مخالفَةٌ قلبى
فقلت دعُوا قلبى وما اختار وارتَضى فبالقلبِ لا بالعينِ يُبْصِرُ ذو القلب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذْنان إلا من القلب[3]

ولخص تجربتَه الكاملة مع المرأة فقال :

عُسْرُ النِّساء إلى ميـاسرة والصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ ماجمحا[4]

ولكنه قبلُ كان كشعراء العصر خلاعةً وتهتكًا ، وإلا فهل تنكر أثر الخمور والقيان والكواعب والغلمان فى النفوس الشاعرة ؟

وأما عبد الصمد بن المعذل فأبو الفرج يروى عنه أنه فى تَهَتُّكِهِ عاشر شابًّا حديثَ السن أطلق عليه اسم الابن وعشق جارية اعتاد أن يناديها بـ « ابنتى » وفى اجتماع الشابين عنده نَشِبَ بينهما حُبٌّ ، فباع الفتى بستانًا له فى نهر معقل

(١) الأغانى ٣ : ١٧
(٢) راجع الأغانى ٣ : ٣٠٢
(٣) السابق ٣ : ٢٣٨
(٤) السابق ٣ : ٢٠٩

واشترى الجارية بثمنه ، فقال عبد الصمد :

بنيّتى أصبحت عروساً تهدى من ابنى إلى عروس
زفت إليه لخير وقتٍ فاجتمعا ليلةَ الخميسِ
يا معشر العاشقين أنتم بالمنزل الأرذل الخسيسِ[1]

ويروى أبو الفرج نفسه قصته مع صديق له كان يعاشره ويجتمعان فى دار رجل من بنى المِنْجاب[2] له جارية مغنية . وقد حدث أن استبدّ بها الصديق دونه فقال فيها شعراً مكشوفاً يصور المتعة الجسدية فى غير ما تحرج ولا احتشام[3] ولكنه فى الأبيات التالية يعطينا جانباً ، هادئاً من جوانب المتعة فهو يقول :

قد نزلنا بروضةٍ وغديرٍ وَهَجَرنا القصر المنيفَ المشيدا
بعريشٍ ترى من الزاد فيه جَرّتَىْ خمرةٍ وصقرا صيودا
وغريرَيْنِ يطربان النَّدامى كلما قلتُ : ابدءا وأعيدا
غنيانى ! يغنّيانِ بلحنٍ سلِسِ الرَّجْعِ يَصْدَع الجُلمُودا
من يزرْنا يجدْ شواءً حبارَى وقديراً رَخْصًا وخمراً عتيدا
وكراما معدّلين وبيضا خلعوا العذْرَ يسحبون البرودا[4]

فثَمّ طبيعةٌ ساحرة ، وثم خمرة وفتية وطعام جيد ، وثم غناء يذيب الصخر . صور مألوفة من صور اللذة اعتاد الشاعر أن ينغمس فيها وينتهبها انتهاباً .

فإذا انتقلنا إلى الرقاشى زميل أبى نواس وجدناه يلخص مذهبه فى الحياة — وهو لا يخرج عن مذهب أى خليع — بقوله[5] .

---

(١) الأغانى ١٢ : ٦٠

(٢) فى ديوان بشار منجاب بكسر الميم من بنى صفرة ، ووردت بالألف واللام فى صلب القصيدة إذ يقول :

إذ طلبت إلى المنجاب نافلة . . . البيت (١ : ٣٧٣ ، ٣٧٤) .

(٣) راجع الأغانى ١٢ : ٦١

(٤) الأغانى ١٢ : ٦٤ والحبارى : طائر أكبر من الدجاج المعروف وله عنق طويل ويضرب به المثل فى البلاهة فيقال : أبله من الحبارى ! والجمع حباريات .

(٥) طبقات ابن المعتز ٢٢٧

أنا لا أطلب أن يُعْـ رَفَ فى الحـرب مقـامى
وبحسبى أن ترانِى بين فتيـانٍ كرام
نهزمُ الراحَ إذا مـا هـمَّ قَـوْمى بانهـزامِ

فهو عابث ولا يريد إلا أن يفرغ للّهو بين هؤلاء الذين دأبوا على أن يهزموا الراح ، وهو يهب قلبه للحياة ، للحب ، ولأىّ شىء جميل ، يفتنه الحسن حتى وإن وصف له ، فلقد قال :

صـفاتٌ وحُسْنٌ أورَثا القلبَ لـوعةً
تَضَـرَّمُ فى أحشـاء قلب متيّم
تمثّلُهـا نفسى لعينى فأنثنى
عليهـا بطـرف النـاظرِ المتـوسم
ويحملنى حبى لهـا فـوق طاقتى
مـن الشـوق دَأبُ الحـائر المتقسم

وكان إذ ذاك مع أبى نواس فأقبل عليهما عمر الوراق قائلاً : رأيت جارية خرجت من دار آل سليمان بن علىّ فما رأيت أحسن منها ، هيفاء نجلاء ، زجاء دعجاء ! فقال الرقاشى : قد والله عشقتها[1] !

ومع الشاعرين — أبى نواس والرقاشى — نذكر الخليعَ الذى يقول ابنُ المعتز عنه : إن والبةَ كان أستاذه ! نذكر هذا الشاعر فى تلك الأبيات التى تستحسن له فى المجون :

وشاطرىُّ اللسان مختلِقُ التكـر يه شـاب المجون بالنُّسُكِ
دَسَسْتُ صـفراء كالشعـاع له من كف علجٍ يدين بالإفـكِ
يحلف فى طبْخهـا بملتـه ودينِ موسى ومنشىء الفـلكِ
حتى إذا رنحتـه سَـوْرتُهـا وأبدلتـه السـكون بالحركِ
كشفت عن عجنـة مزعفـرة فى لين صينيـة من الفنكِ

(١) الأغانى ١٥ : ٣٥

فكان ما كان لا أبـــوح بـــه فى الناس من هاتكٍ ومنتهك[١]

على أنه يلخص فلسفته ببيته التالى الذى يقول فيه :

ســـقَى اللهُ عَيْشًا لم أبِتْ فيـــه ليلة
من الدهر إلا مِنْ حبيبٍ على وعْـــدِ[٢]

وما يأتيه الحب حتى يخلص له ويشرب معه ، فإذا انتشيا أمسيا شيئًا واحداً وامتزجا معًا كما تمتزج الروح بالجسد على حد قوله :

فامتزجنـــا معًـــا مُمَـــا زجـــةَ الرُّوحِ للبـــدن[٣]

ويصف حبيبه هو غلام جميل :

كأنما الرش عـــلى خـــدِّه طلٌّ على تفـــاحة غَضَّه
صفـــاته فاتنـــةٌ كلها فبعضُه يذكـــرنى بعضَـــه
يا ليتنى زَوَّدَنى قبـــلةً أو لا فمن وجنتـــه عضَّـــه

وفى الأغانى شىء طويل عما كان بينه وبين هذا الغلام . رواه الشاعر بنفسه وقَصَّ ما قال فيه من شعر ، وفيه من الوقاحة ما لا سبيل إلى إثباته هنا[٤]. ولكنه يدل على ما كان لهذا اللون من الحياة من أسباب البقاء . وعلى أنه لم يكن مستنكراً ، حتى لقد قال النظام فى غلام ، وهو هو من نعلم عالمًا جليل الشأن :

بان بك الشكل والضطير وجَـــلَّ عن وصفك الضميرُ
فليس يُخْطيك فى امتحانٍ صـــغيرُ أمرٍ ولا كبيرُ

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٧٠ والعجنة : السمينة سكنت جيمها ضرورة ، الفنك : العجب ، والقطعة من الليل وحيوان صغير كالكلب ذو فرو فاخر ، أو هو الفرو ، وفى الأغانى (٦ : ١٧٠) عن وزة سمنة .

(٢) الأغانى ٦ : ١٧٨

(٣) السابق ٦ : ١٨٠

(٤) راجع الأغانى ٦ : ١٨١ وما بعدها .

خُلقْتَ من مثل لا عيانٍ جسماً على أنه منير
فأنت عند المجس نورٌ وأنت عند اللحاظ نور[1]

وقال مثله الجميع ، والجاحظ يشير إلى تلك الظاهرة فيقول : « فأما الأدباء الظرفاء فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا ، ووصفوهم فأجادوا ، وقدموهم على الجوارى فى الجد منهم والهزل »[2] ، كما اهتموا بالخصيان منهم وتغنوا بحسن قدودهم ونعومة أبشارهم ؛ فلم يكن إذن كثيراً على أبى نواس أن يحتشد لهذا الفن فى شعره . وأن يقول فيه ويعيد القول . وأن يبتكر ويخلط بين الفتى والفتاة .

ولنقف على أية حال عند النواسى وله نفس الخليع المطبوع ، فلقد دعا إلى الأخذ بكل ما فى الحياة من لذائذ :

غدوتُ على اللذات مُنْهَتِكَ السِّتْرِ
وأفْضَتْ بناتُ السِّرِّ منِّى إلى الجَهْرِ
وهَانَ علىَّ الناسُ فيما أريدُه
بما جئتُ فاسْتَغْنَيْتُ عن طاب العُذْرِ
رأيتُ الليالى مرصَدَات لمُدَّتى
فبادرتُ لذَّاتى مُبادَرَةَ الدَّهرِ
رَضيتُ من الدنيا بكأسٍ وشَادنٍ
تَحَيَّرُ فى تفضيله فِطَنُ الفِكْرِ
مُدامٌ ربَتْ فى حِجْرِ نوحٍ يُديرُهَا
علىَّ ثقيلُ الردْفِ مضْطَمِرُ الخَصْرِ
صحيحٌ مريضُ الجَفْنِ مُدنٍ مباعِدٌ
يُميت ويحيى بالوِصَال وبالهَجْرِ

---

(١) كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان ٣٣ (تحقيق شارل بلات) وفى التذكرة الأدبية ورقة ١٧ رائية أخرى على هذا النحو . والضطير فى البيت الأول لا سبيل إلى التحقق منها إلا أن تكون « النظير »

(٢) كتاب مفاخرة الجوارى ٢٧

كأنَّ ضيـــاءَ الشَّمْس نِيطَ بوجْهِـــه
وبدرُ الدُّجَى بين الترائب والنَّحْـــر
إذا مـــا بَدَتْ أزرار جيـــب قميصه
تَطَلَّع منهـــا صورةُ القَمَرِ البَـــدْرِ
فأحسنُ من رَكْضٍ إلى حَوْمة الوَغَى
وأحْسَنُ عندى من خروج إلى النَّحْرِ(١)

إنه لا يخفى شيئًا ، ويضع حياته بين أيدينا . . يتكلم عن نفسه بصراحة ويقول ما قال الرقاشى ، أو يحذو الرقاشى حذوه فى القول والفعل ! وليس هذا غريبًا ، وكلا الشاعرين لا يهمه أحد ، ولا يهتم هو بإنسان ، وإنما يهون عنده الجميع ، ولا سيما إذا كانوا عربًا :

عاقَرَة المُـــدام بوجـــه ظبى حَوَى فى الحسْنِ غايات الرّهان
ألذُّ إلىَّ مِنْ عيشٍ بوادٍ مع الأعـــراب مجدوبِ المكان(٢)

النواسى لم يَعُدْ يبالى لوم اللائمين ، ما دام يأخذ من حياته ما يريد ، وما دام يشرب معتقة الدنان . يدير كأسَها عليه ثقيلُ الرّدف نحيلُ الخصر ، ذلك الساقى الذى يريده الشاعرُ ساحرِ الطرف قادراً على الوصال والهجر ، يدنو إليه بقدر ما يبعد ، ويقول :

عِناقُ لغانيات ألذُّ عندى وأشْهَى من معانقـــة السِّنان(٣)

وهو على أية حال كان صادقًا حين قال :

فإنى قد شبعت من المعاصى ومن إدمانها وشبعن منى(٤)

---

(١) ديوانه ١٣٩ ، ١٤٠
(٢) السابق ١٠٣
(٣) السابق ٣٥٣
(٤) السابق ١٣٩

فإذا عاب عليه أحد مسلكه ، سَبَّه بل تجرَّأ عليه بإلصاق تُهْمة الزندقة له ، كما قال فى هجاء إبراهيم النظام :

قولا لإبراهيم قولا هِتْـــرا غلبىّ زندقة وكفـــرا[1]

لقد كان أبو نواس ينتقل من مكان إلى مكان ، وخبر حياة بغداد كما خبر حياة البصرة ، وكان إذا ساعفته الدراهم سار إلى الحانات المبثوثة فى ظاهر الأمصار وكان دهاقينها يعرفونه ، بل كانت كلابهم تألفه بدورها فهو يقول :

فلمـــا بدا لى اليـــأسُ عَدَّيْتُ ناقتى
عَنِ الدّار ، واســـتولى علىّ عـــزائى
إلى بيتِ حـــانٍ لا تهـــرُّ كلابُه
علىَّ ولا ينكرن طـــولَ ثوائى[2]

فإذا جلس أقبلت الساقية وهو فى صحبه :

فقلنا لها : هاتيه ، ما إنّ لمثلنـــا فديناكِ بالأهلين عن مثْلِ ذا صبْرُ
فجاءت به كالبدر ليلةَ تِمِّه تخال به سحراً وليس به سِحْرُ
فقمنا إليه واحداً بعـــد واحـــد فكان به من صَوْم غربتنـــا الفطر
فبتنا يرانا الله شَرَّ عصـــابةٍ نجرر أذيالَ الفسوق ولا فخر[3]

وهؤلاء الصحب كرام شم الأنوف بيض ، صالوا باللهو على الدهر ، ودار الزمان لهم بأفلاك السعود ، يقول[4] :

وفتيـــةٍ كمصابيح الدُّجَى غُـــرَرٍ
شُمِّ الأنوف ، من الصّيدِ المَصَالِيتِ[5]

---

(١) ديوانه ٥٣٠ وفى لسان الميزان أنه كان شاطراً شهر بالفسق ١ : ٦٧ (ط . حيدر آباد الدكن) وهتراً : عجباً أو سقطاً من الكلام .

(٢) ديوانه ٤٠٢ (٣) السابق ٢٨

(٤) السابق ٣٨

(٥) مصابيح الدجى : النجوم ، غرر : بيض ، الصيد : جمع أصيد وهو الرافع رأسه كبراً ، المصاليت : الشجعان .

صـــالوا على الدَّهـــر باللهو الذى وَصَلُوا
فليس حبلُهُم مِنْـــهُ بِمَبْتُـــوتِ[١]
دار الزمـــان بأفـــلاكِ السعود لهم
وعـــاج يحنـــو عليهم عاطف الليت[٢]
نادمتُهـــم قرقفَ الإســـفِنْطِ صـــافيـــةً
مشـــمولةَ سُبِيَتْ من خَمْـــر تكريت[٣]
من اللواتى خطبنـــاهـــا على عجـــل
لمـــا عَجِجْنـــا بربات الحوانيت[٤]
فى فَيْلق للدُّجَى كاليَمّ ملتَطِمٍ
طامٍ ، يحارُ به من هَوْلِه النـــوتى[٥]
إذا بكافِـــرَةٍ شمطـــاءَ قـــد بَرَزَتْ
فى زىّ مُختَشِع لله زميت[٦]

ويمضى فى أناه ، صادراً عن فتية مخلصة لعصرها ، مضيفاً إلى ما سجلته كتب التاريخ صفحات لا يمكن أن تكذب شيئاً ، فهو يقول :

قالت : فعنـــدى الذى تبغـــون فانتظروا
عنـــد الصباح فقلنـــا : بلْ بِهـــا إِيّى
هى الصَّبـــاح تُحيـــل الليـــلَ صفوتُهـــا
إذا رمت بشرارٍ كاليواقيتِ
رَمْى الملائكةِ الرُصَّـــاد إذ رجَمَتْ
فى الليل بالنَّجْم مُرّادَ العفـــاريتِ

---

(١) بمبتوت : بمقطوع .
(٢) عاج : مال وأقام بالمكان . الليت : صفحة العنق .
(٣) القرقف : من أسماء الخمر ، الإسفنط : المعتقة الطيبة الرائحة ، تكريت : بلد بين بغداد والموصل غربى دجلة .
(٤) عججنا : صحنا .
(٥) فيلق : جيش عظيم ، ملتطم : مضطرب ، النوتى : الملاح .
(٦) شمطاء : شعرها فيه بياض ، زميت : متوقر .

فأقبلت كضيـاءِ الشمس نازعةً
وفى الكأس من بين دامى الخصر منكوتِ[1]

ولا يتوقف الشاعر ، لأنه مفتون بما يرى محب له . وهو قد وجد فيه متاعًا . ويريد أن يمتعنا فيقول[2] :

يديرُها قَمَرٌ فى طَرْفِه حَوَرٌ كأنما اشتُقَّ منه سِحْرُ هاروتِ
وعندنا ضاربٌ يشدو فيطربُنـا يا دارَ هند بذات الجزع حُيِّيتِ
إليه ألحاظُنـا تثْنِى أعنّتهـا فلو ترانا إليْه كالسَّبَـاهيتِ
من أهل هيتٍ سخىّ الجرم ذى أدب له أقول مزاحًا : هات يا هيتى
فينبرى بفصيحِ اللَّحْنِ عن نَغَمٍ مثقَّفاتٍ . فَصيحاتٍ بتشْبيتِ
حتّى إذا فلكُ الأوتار دارَ بِنـا مع الطبول ظللنا كالسبابيتِ
فزنا بها فى حديقـاتٍ ملفَّقَةٍ بالرَّنْدِ والطَّلح والرُّمان والتـوتِ

والقصيدة وهى من عيون شعره ، أو الأبيات المختارة من هذه القصيدة تعد تخطيطًا شاملاً لمذهب الشاعر من حيث هو تطبيق عملى . وهو ليس تخطيطًا مفتعلاً ولا باهتًا ، وإنما هو قطاع كامل قوى لجانب هام مما تَعَوَّدَ الشاعرُ أن يعبر عنه . وما أكثر ما عبر عن حياة اللذاذة ، إلا أن القسمات المحددة لهذه الحياة هنا ليست مشوبة بالتهتك المطلق ، فربما قالها وهو لما يَزَل فى أول طريق المجون ، أو ربما قالها وهو فى أخريات سنيه إذا اعتبرنا ما فى آخرها من ندم وطلب العفو متمشيًا مع ما قيل فى توبته ، قال[3] :

فقـدِ نَدِمتُ على ما كان من خَطَلٍ
ومـن إضـاعة مكتوب المـواقيتِ
أدعـوك سـبحانَك اللهُمَّ فاعْفُ كما
عفـوت يا ذا العُـلا عن صاحبِ الحوت

---

(١) منكوت : ملقى على رأسه .
(٢) السبابيت : جمع سبت أى الرجل الكثير النوم
(٣) صاحب الحوت هو النبى يونس بن متى وقصة ابتلاع الحوت له معروفة

المهم أن تائيةَ الشاعر تبصرنا بالحياة الاجتماعية التى عرَفها عصر كامل من عصور الأدب . حياة نابضة ، وغناء وقيان، وخمر وعبث ، ولا شيء بعد ذلك ! إنه أخذ بكل ما فى الوجود من متاع فى، واقعية وبعمق وقوة ، وما كان أصدقَه حين أنشد :

تلك لذّتى وكنتُ فتًى لم أقل من لذة حسْبِى

هو نهم ، هو جائع يريد نعيم الأرض . لا يستطيع أن يشبع بل لا يقدر على أن يقول من لذة : حسبى ! مثله فى ذلك مثل أغلب شعراء العصر ، هؤلاء الذين اختلطوا وتزاوروا وعبُّوا من كأس واحدة .. فى البصرة وفى الكوفة وفى بغداد ، وفى خارج هذه المدن . يلتقون جميعًا ويستمعون إلى ما يتناشدون . ويتأثر بعضهم بعضاً فيأتى شعرهم قريب المأخذ بعضه يشبه بعضَه !

وتتقدم الأيامُ ويموت شعراء البصرة ، من هاجر منها كأبى نواس ومن بقى فيها كمحمد بن يسير ، ويظل شعر اللذة يحمله هؤلاء الذين امتدت بهم الحياة طويلاً فى العصر العباسى . وقد يعودون إلى البصرة كما فعل الحسين الخليع بعد موت الأمين وقد لا يعودون كالعطوى الذى حرص على الفاسفة التى نادى بها سابقوه ، فكان لا يفتأ يقول (١) :

أى شيء ألذُّ من يومِ دَجْنٍ فيه كأسٌ على النَّدامَى تُدَار
وقيان كأنَّهُنَّ ظباء فإذا قُلْنَ قالتِ الأوتار

وأبو الفرج يروى أنه كان يتعشَّق قَيْنَةً يقال لها « عثعث » وكان لا يكاد يراها إلا بمشقة ، وفى يوم رذاذ بعث فأتى بها ، وأنفق معها ساعات طيبةً وكتب إلى صديق له يقول :

ويوم مطير وعيش نضير وكأس تدور وقدر يفور
وعثعثُ تأتى إذا جئتنا فتسمع منها غناءً يصور

(١) الأغانى ٢٠ : ٦٠

وعندى وعنـــدك ما تشتهيـ ـه شـــعر يمرّ وعلمٌ يـــدور
وإذ كان هذا كما قد وصفت فإنّ التفـــرق خطبٌ كبير
فقم نصطبحْ قبل فَوْت الزمان فإنّ زمـــانَ التلهى قصـــير[1]

دائمًا هذه الاختلاسة . دائمًا مبادرة اللذة قبل فوت الفرصة ؛ فإن زمن اللهو قصير ، وحياة الشاعر لا تتسع إلا للمجون وإلا للغزل وإلا للمعاقرة ! وكانت بغداد نفسها تفتح صدرها لمثل هذه الحياة ، وكذلك الكوفة والرقة ؛ فكان ثمّ ثراء فى المجتمع ، ومدّ له فى الحرية يأخذ أبناؤه بما شاءوا من متاع وخلاعة. ولا يظنّ أحد أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا يمثلون إلا المترفين ، بل ثمة إشارات قوية تدل على أنهم لم يختلفوا كثيراً عن جمهرة الناس ما كانت هذه الجمهرة تملك المال .

المظهر الثالث :

ومع ذلك فإن تلك الصورة المشرقة لا يمكن أن تصدق على مجتمع البصرة كله ؛ فهناك بعدُ الطبقة الدنيا التى لم يكن يتاح لها بعض ما يتاح لغيرهم من القادرين وشبه القادرين. وكثيرون من أبناء هذه الطبقة سكتت عنهم الأثبات ، وإن كنا نرى هناك اللمحة عنهم تمرّ عرضًا ، والإشارة تومئ من بعيد إلى فاقتهم ، والتندر الساخر يرد مدلا على عوزهم .

ويحسن أن نتوقف هنا قليلاً لنرى بعض ملامح الفقراء ، ونحس إحساسهم وهم يساقون قرابين للسادة المترفين . ومثل هؤلاء قد يعرفهم بشار وابن يسير والخليع وقد لا يعرفونهم ، إلا أنهم كانوا برغم ذلك موجودين يعطون جانبًا من جوانب المجتمع . فلا بدّ إذن من أن نقدمهم بين يدى هذا البحث ، ولا بدّ من أن نراهم كما رأينا الأولين .

وهنا يظهر على مسرح الحوادث صديق بشار ، وأعنى به أبا الشمقمق

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٦٠

الذى يقول عنه المرتضى « كان يضرب بشعره المثل فى اللين والتهالك والضعف[١] » ولقد شغل أبو الشمقمق الناسَ بحديثه عن الفقر . وأعرض عنه النقاد لما امتاز به من شعبية صارخة . وشعره بالقدر الذى وصل إلينا صرخة حادة كانت تتردد فى البصرة ، وترتفع شاكية هادرة فيستجيب لها العامة وينفعلون بصداها . فى الوقت الذى كانت تتردد فيه أسماء صنوف الأطعمة مما حفلت به الكتب ككتاب البخلاء للجاحظ ، وكان لجوع أمثال أبى الشمقمق آثاره البعيدة فى حديثهم مع الناس . فقد روى أن قومًا رأوا الجمّاز[٢] يأكل فى دهليز أحد البصريين وبين يديه قصعة فقالوا له : رأيناك وأنت تأكل فمن أى شىء كانت القصعة وأى شىء فيها ؟ قال : قَىْء كلب فى قِحْف خنزير[٣] .

ونعود إلى أبى الشمقمق فنلقاه — على فقره — ليّن الجانب يواسى سنور بيته مواساةً رقيقةً تحلوه من الفيران ، إذ لم يكن ثَمَّةَ ما يؤكل . يقول الشاعر :

ولقد قلتُ حين أقفر بيتى ... من جرابِ الدقيق والفخاره
ولقد كان آهلا غيرَ قَفْرٍ ... مُخْصبا خيره كثيرُ العماره
فأرى الفأر قد تجنبْنَ بيتى ... عائذاتٍ منه بدار الإماره
ودعا بالرحيل ذُبّان بيتى ... بين مقصوصةٍ إلى طيّاره
وأقام السنور فى البيت حَوْلا ... ما يَرَى فى جوانبِ البيت فاره
ينفض الرأس منه من شدة الجو ... عِ وعيشٍ فيه أذًى ومراره
قلت لما رأيتُه ناكسَ الرأ ... سِ كئيبًا فى الجوف منه حرارَه
ويْكَ صبراً فأنت من خيرِ سنو ... رٍ رأته عيناى قَطُّ بحاره

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٢٦٩ (ط . الحلبى)

(٢) كان صديقاً لأبى نواس وأكبر منه (تاريخ بغداد ٣ : ١٢٥)

(٣) البخلاء ٦٤ وقحف : ما انفلق من الجمجمة فانفصل ، أو هو إناء من خشب مثل قحف الرأس .

قال : لا صَبْرَ لى وكيف مقـامى ببُيَيْت قفـرٍ كجوف الحماره[١]

هذه الصورة الطريفة التى تنتهى بإعراض السنور عن الشاعر تعود فى قصائد أخرى لأبى الشمقمق ، ولكن فى شعبية أعمق ، إذ يقول :

ولقد قلتُ حين أجحرنى البر د ، كما تجحر الكلاب ثُعالَه
فى بُيَيْت من الغضـارة قفر ليس فيه إلا النَّوَى والنخاله
عَطَّلتْهُ الجرذانُ من قلة الخير ، وطـار الذباب نحو زباله
وأقام السنورُ فيـه بِشَـرّ يسـأل الله ذا العُلا والجلاله
أن يرى فأرة فلم ير شيئًا ناكسًا رأسـه لطول الملاله
قلت : اصبرْ يانازُ رأسَ السناني ، وعللتُه بِحُسْنِ مقاله
قال : لا صبرَ لى وكيف مقامى فى قفـارٍ كمثل بيـد تباله
ثم ولَّى كأنه شـيخُ سـوءٍ أخرجوه من محبس بكفاله[٢]

دائماً هذا العقوق ، ولكن « الناز » معذور لأنه لا شىء فى الدار . حتى الذباب قد طار إلى ذلك المكان الذى ذكره . وأجمل ما فى الصورة رحيل السنور كما يرحل هذا الشيخ المرتاع الذى أخرج من محبسه بكفالة !

على أنه فى قصيدة ثالثة يدع مسألة الأكل جانبًا . ويحدثنا عن ملبسه ، وذلك فى قصة طريفة نجتزئ منها لفحشها تلك الأبيات :

أخـذ الفـأر برجل جَفَـلوا منها خِفافى
وسـراويلاتِ سـوءٍ وتبـابينَ ضعـافِ
دَرَجوا حولى بِزَفْنٍ وبضرب بالدفـافِ
قلت : ما هذا ؟ فقـالوا : أنتَ من أهـل الزفافِ[٣]

---

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٤ ، ٢٦٥ وفى الأصل بيوت والأنسب ما أثبت ، أجحرنى : أدخلنى الجحر

(٢) الحيوان ٥ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ وثعاله : هو الثعلب ، ذبالة : اسم موضع قرب الكوفة ، ناز : اسم للسنور بالفارسية على ما رأينا .

(٣) الحيوان ٥ : ٢٦٨ ، ٢٦٩ والتبابين جمع تبان كرمان سروال صغير يستر العورة ، يزفن : يرقص

فهو فقير ، ولكنه يمرح ! وكان لا يعجبه أحد، يظهر تبرمه بالأمراء وسخطه عليهم ، وقد وردت له أبيات ساخرة فى ذلك . بل لم يكن يتورع عن هجائهم برغم إطعامهم إياه ، فيقول مثلاً :

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى نزلت على أوفى بن منصور[١]

ويقول :

رأيت الخبز عزّ لديك حتى حسبت الخبز فى جوّ السحاب[٢]

فهو مشغول بالخبز حقًّا كلف به ، وكان يسميه ابن حبة ، فهو يقول :

فى حبة القلب منى زرعت حبّ ابن حبه

فإذا لم يجده يروح يستجدى ، وربما اتخذ استجداؤه شكل تهديد . كما اعتاد أن يفعل مع بشار ، وكما فعل مع يوسف الشاعر وسرّان ومنصور بن زياد وابن مساور[٣] ، وفى هذه الحال يكون شعره لاذعًا ساخراً كأنه صورة كاريكاتورية معبرة ، يقول مثلاً :

يوسف الشاعر فَرْخٌ وجدوه بالأبله
حلقىٌّ قد تُلُقِّى كامنًا فى جوف جله
خيطوها خشية الكلـ ـبِ عليه بمسله

كما يقول :

له بطن يضل الفيل فيه ودبر مثل راقود النَّشرط
ولحية حائكٍ من باب قلبٍ موصلة الجوانب بالخيوط
له وجه عليه الفقر بادٍ مرقعة جوانبه بقوط

تلك صورة رسمها ذلك الشاعر عن الفقر وما ينجم عنه ، ويأتى سعيد بن وهب البصرى فيرسم صورة أخرى قد لا تقل طرافة عما تدل عليه أبيات

---

(١) غرر الخصائص الواضحة ٢٨٦ (ط . بولاق ١٢٨٤)
(٢) البخلاء ٦٤
(٣) راجع الأغانى ٣ : ١٩٤ ، والحيوان ١ : ٢٢٥ ، ٢٦٤ ، الوزراء والكتاب ٢٢٤ ، ٢٣٢

أبى الشمقمق ، وتفعم إلى جانب هذا بالمرارة والحرمان ، يقول سعيد :

من كان فى الدنيا له شارةٌ فنحن من نظارةِ الدُّنْيا
نَرْمُقها من كثَبٍ حسرةً كأننا لفظٌ بلا معنَى
يعلو بها الناس وأيامُنا تذهب فى الأرذلِ والأدنَى

وكان يعنى بهؤلاء الناسِ أصحابَ السلطان ، وكانوا فى أحوال جميلة على ما يذكر أبو الفرج[1]. ولكن أبا عبد الله بن الجراح ينسبها لعمرو الخاركى[2].

وأبو فرعون العدوى متسخط على الزمن ، لا عِنٌ إياه ، فهو يقول :

هذا زمانٌ عارمٌ من يبسه ترى اللئيم ينتقى من جنسه
يصبح من صبيانه وعرسه مستأثراً بخبزه ودِبْسِه[3]

ويرسم صورة رائعة عن فاقته ، وعن أولاده السود كسواد القدر ، وقد جاءهم البرد وهم بغير غطاء ، يلتصقون بصدره وظهره التماسًا للدفء ، وهيهات تغنى عليه :

وصبيةٍ مثل صغار الذَّرِّ
سود الوجوه كسواد القدر
جاءهُمُ البردُ وهم بشرٌ
بغَيرِ قُطْفٍ وبغير دُثْرِ
تراهُمُ بعدَ صلاةِ العَصْرِ
بعضهمُ ملتصقٌ بصدرى
وآخرٌ ملتصقٌ بظهْرى

---

(١) الأغانى ٢١ : ٧٠

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ١ : ٢١١ وقيل الخازكى ، والخاركى نسبة إلى جزيرة قريبة من عمان . أما الخازكى فنسبه إلى خازك من سواحل البصرة ، ونسب إليها الصلت ابن عبد الرحمن البصرى أبو همام الخازكى من الذين ذكرهم ابن حبان فى الثقات وتهذيب التهذيب (٤ : ٤٣٦)

(٣) الورقة ٥٤

إذا بكوا علىٰ بعضهم بالفجر[١]

وقد اعتاد أن يمرّ بسكة العطارين ومعه ابنتاه ويقول :

بنيّيَّ صابرا أباكما إنكما بعيْنِ مَنْ يراكما
الله ربي وحْدَه مولاكما ولو يشاء عنْهُم أغناكما[٢]

وقد يصرخ في الموالي يستجديهم فيقول :

يا إخوتي يا معْشَر الموالي
أنا ابْنُكم وأنتم أخوالي
هذا زبيلي وجرابي خالي
وقد مللنا كثرةَ العيال[٣]

ذلك الراجز صيحة أخرى من صيحات الفقر تضجّ بها سماء البصرة كما ضجت بصيحة أبي الشمقمق . والميزة الواضحة التي يمتاز بها رجزه هو هذه الشكاة . قوت قليل ، وعيال كثيرة ، وقوي تتجاوب مع أحاسيس الشعب فيتحفّى بها ، ويرضى عنها ، ويحفظها له . ويظهر أنه ملّ حياة البادية ، فالتمس أسباب العيش داخل البصرة ، فلم يغنه سعيه إلى أن مات معدمًا .

وندع أبا فرعون إلى الخاركي فإذا هو في حال عصبية ، وإذا هو لا يملك شيئًا ألبتة وإذا هو مفلس معدم ، يقول :

أنا في حالٍ تعالى اللّـ ـهُ ما أعظمَ حالي
ليس لي شيء إذا قيـ ـل لمن ذا قلتُ ذا لي
ولقد أفلستُ حتى حلّ أكلي لعيالي
من رأى شيئًا محالاً فأنا عينُ المحال

---

(١) الورقة ٥٤
(٢) الكامل ١ : ٢٠٨
(٣) الورقة ٥٥

فبلاد الله أرضى والسموات ظلالى[١]

فيعطينا صورة قد لا تقل قسوة عما صوّره لنا أبو فرعون وأبو الشمقمق ، وتروعنا بمسألة الجوع التى تعصف بالنفوس . الجوع فى بلد كالبصرة ، يقسو على كثير من أهل الطبقة الدنيا حتى ليرتكبوا أبشع الجرائم فى سبيل أن يطعموا . فالجاحظ يروى أن ثمة طائفة من الخلعاء كانت تخنق الناس فى البصرة وتأكل لحمها ومن هؤلاء رادويه[٢]. وكان ثمة قوم آخرون يأكلون السنانير والحيات والعقارب وقد يشوونها لتكون ألذ طعماً[٣]. وهؤلاء فيما يبدو كانوا يسكنون الريف ، وقد عاب ابن مناذر على الفقراء ذلك فقال :

فإياكمُ والريفَ لا تقربُنَّهُ فإن لديه الحَتْفَ والمَوْت قاضيا
وهم طردوكم عن بلادِ أبيكمُ وأنتم حُلولٌ تشتوون الأفاعيا[٤]

والواقع أن مسألة الإطعام لم تكن تَعْنى هؤلاء الفقراء فحسب ، وإنما كانت أيضًا تشغل بال الذين اعتادوا أن يملؤوا بطونهم . ولأبى نواس أشعار كثيرة فى ديوانه وفى غير ديوانه عن قدور الطعام وألوان الأكل وعن الخبز ، وكذلك كان لابن يسير والرقاشى وأبى المخفف[٥]. وقال العمانى الراجز فى أبى الحرّ التميمى :

إن أبا الحرّ لعَيْنُ الحرّ يدفع عنا سَبَرات القرّ
باللحم والشحم وخبز البرّ ونطفةٍ مكنونةٍ فى الحر[٦]

وروى أنه تغدى يومًا عند محمد بن سليمان بن على فوصف أنواع الطعام وصف المعجب المأخوذ ، فقال :

---

(١) غرر الخصائص الواضحة ٣٠٩
(٢) راجع الحيوان ٢ : ٤٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩ ، ٣٩٠
(٣) الحيوان ٤ : ٣٠٣
(٤) البخلاء ١٩٩
(٥) راجع على سبيل المثال البخلاء ٢٠٨ وغرر الخصائص الواضحة ٢٨٧ والورقة ١١٤
(٦) الأغانى ١٧ : ٨٠

جـاءوا بفـرنى لهم ملبـون بات يُسَقَّى خالصَ السُّمون
ولونوا مـا شـئتَ من تلوين من باردِ الطعـام والسخين
ومن إوَزٍّ فائقٍ سمـين ومن دجاج فُتَّ بالعجينِ
فالشحم فى الظهـورِ والبطون وأتبعـوا ذلك بالجـوزينِ
وبالخبيصِ الرَّطبِ واللوزينِ وفكَّهُوا بعِنَبٍ وتـينِ[1]

وهو يؤكد أنه عاش فقيراً ، ولم يعرف الرخاء إلا بعد أن عقد صلته بعيسى ابن موسى ، وذلك حين يقول :

ما كنت أدرى ما رخاء العيش
ولا لبست الوشى بعد الخيش
حتى تمـدحت فتى قريش[2]

وقد يكون العمانى قد صدق بهذا القول وقد لا يكون ، إلا أن الملحوظ أن كثيرين من الشعراء الذين تحدثوا عن الفقر لم يبيعوا كرامتهم دائمًا ؛ فأبو فرعون لم يكن يسأل الأعراب . وقيل له يومًا : سل من فى البصرة من أقاربك ، فقال :

ولسـتُ بسائلِ الأعرابِ شيئًا حَمِدتُ اللهَ إذْ لم يأكلونى[3]

وأبو الشمقمق الذى قال يسخر :

ممن تعلمت هـذا أن لا تجـود بشى
أمـا مُـررت بعبـد لِعَبْدِ حاتم طى[4]

لم يكن يسأل كل الناس معروفًا ؛ فهو يقول هاجيًا سعيد بنَ سلم الباهلى :

قال لى الناس زرْ سعيد بن سـلم
قلت للنـاس لا أزور سعيدا

---

(١) الأغانى ١٧ : ٨١
(٢) السابق ١٧ : ٨٢
(٣) الكامل ١ : ٢٠٨
(٤) المستطرف ١ : ٢٠٧

وأمـــيرى فتى خزاعةَ بالبصـ
ـرةِ قـــد عمَّهـــا سماحًا وجـــودا[١]

وكان الخليل بن أحمد يعيش فى ضنك رهيب ، فلم يشك ولم يسأل أحداً . وقد روى أن سليمان بن على وجه إليه رسولا يستدعيه لتأديب ولده ؛ فلما جلس الرسول عنده أخرج له خبزاً يابسًا وقال : كل ، فما عندى غيره ، وما دمت أجده فلا حاجة لى إلى سليمان ! ثم أنشأ يقول :

أبلغْ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غِنَىً غير أنى لست ذا مال
سَخَّى بنفسىَ أنى لا أرىَ أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقَى على حـــال
والفقر فى النفس لا فى المال تعرفُه ... ومثل ذاك الغِنَى فى النفس لا المال
فالرزقُ عن قدرٍ لا العجز ينقصه ... ولا يزيدك فيـــه حَوْلُ محتال[٢]

ولم يكن النضر بن شميل دون الخليل بن أحمد إباء ، ولم يكن يتورع عن الذهاب إلى المأمون فى خلقان رثة . وروى أن الخليفة عاب عليه مرةً قميصه المرقوع وقشفًا فى جلده ، فاعتذر بضعفه وشدة الحرّ[٣] .

وسقطت دار لأبى شراعة وكان ضَيِّقَ اليد فلم يستطع إصلاحها ، ولما عوتب فى ذلك قال :

تلوم ابنـــة البكرى حين أؤمها ... هزيلاً وبعض الآيبـــين سمينُ
وقالت : لحاك الله تستحسن العرَا ... عن الدارِ إنَّ النائبات فنـــونُ
وحولك إخوانٌ كرامٌ لهم غِنًى ... فقلت : لإخوانى الكرامِ عيونُ
ذرينى أمُتْ قبل احتلال محلة ... لها فى وجوه السائلين غُضُونُ
سأفدى بمالى ماءَ وجهىَ إننى ... بما فيه من ماء الحيـــاة ضنينُ[٤]

وكان محمد بن حازم الباهلى البصرى يظهر القناعة على فقره ، وكان يقول :

---

(١) الكامل ٢ : ٢٢
(٢) نزهة الألبا ٥٧ : ٥٨
(٣) السابق ١١١
(٤) الأغانى ٢٠ : ٣٧

أشدّ من فاقة وجـــوع إغضاء حُرّ على خضوع
فارْضَ من الدهر قوتَ يوم وأنت بالمنـــزل الرفيـــع
وارحـــل إذا أجدبت بلادٌ منها إلى الخصب والربيع[1]

وإن كان لا يمنع من وجود من يطلب ويصرّ على الطلب ويتوسل إليه ، كما فعل ذلك الأعرابى الذى دخل الجامع وهو يقول : أما بعد فإنا أبناء سبيل وأنضاء طريق وفل سنة ، تصدقوا علينا فإنه لا قليل مع الأجر[2]. وكما كان يفعل أبو المخفف عاذر بن شاكر ؛ فقد اعتاد أن يدور على التجار والصناع فلا يَدَع منهم أحداً إلا أخذ منه اليسير ، حتى وإن كان كسرة خبز ، وهذا الشاعر تفنن فى وصف الرغيف ، فبعد أن قال :

دع عنـــك رسم الديار ودع صفـــات القفـــار

أنشأ يقول :

وصِفْ رغيفًا ســـريا حكتْهُ شمسُ النهـــار
أو صورة البـــدر لمـــا استتم فى الاستدار
فليس يحســـن إلا فى وصفـــه أشـــعارى

كما أنشد[3]:

فدع الطـــلول لجاهلٍ يبكى الديارَ الخاليـــاتِ
ودعِ المديحَ لأمْردٍ ولخـــادمٍ والغانيـــاتِ
وامـــدحْ رغيفًا زانـــه حرف يجل عن الصفاتِ
يدع الحليمَ مدلّهـــًا حيران يغلط فى الصـــلاةِ

وشعره تسجيل صادق من هذا الخلق ، ومن إحساسه بالحاجة . وقد وصف مظاهر جوعه وصفًا رائعًا ساخراً مرحًا مما قد يلقى فى الروع أنه قد يصطنعه

---

(١) الورقة ١٠٩

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩٠ وفل سنة : بقية سنة مجدبة

(٣) الورقة ١١٥

تظرفًا ، إلا أن إلحاحه على هذا الجانب يؤكد عوزه . ومن شعره المحبب أبيات يحدثنا فيها عن دفتر اعتاد أن يكتب فيه أسامى من يستجديهم ووظائفهم ، ويقول :

دفتر فيه أسامى كلّ قرم وهمام
وكريم يظهر البشـ ـرَ لنا عند السلام
يوجب النَّصْفَ عليه حاتمًا فى كل عام
أو فُلوسا كلَّ شهرٍ لثلاثين تمام[1]

وإذا كان هذا الشعر قوى التجاوب مع أحاسيس العامة ، فإن فيه حنانهم . أو قد صوّر بعضُه تعاطفَ هؤلاء الفقراء بعضهم على بعضهم ، فهم يروون أن سائلاً مرّ يومًا على أبى شراعة فلم يجد هذا ما يعطيه له سوى نعليه فرمى بهما له ومضى ، وفى الطريق عثر أبو شراعة ودميت إصبعه فقال :

ألا لا أبالى فى العلا ما أصابنى وإن نقبت نعلاى أو حفيَتْ رِجْلِى
فلم تَرَ عينى قط أحسنَ منظراً من النكب يدمى فى المواساة والبذل
ولست أبالى من تأوب منزلى إذا بقيت عندى السراويل أو نعلى[2]

وحدث أن دخل أبو الشمقمق على صاحب له فوجده مفلسًا فرق له ، وما سمعه يقول :

أخنى الزمانُ عليهمُ فكأنما كانوا بأرضٍ أقفرت فتحولوا

حتى قال هو :

الجود أفلسهم وأذهب مالهم فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا[3]

والروايات تذهب إلى أن المهدى خرج يومًا فى طلب الصيد ، وكان معه عمر بن بَزيع ، وضلا معًا الطريق . ثم شعرا بالجوع ، فراحا يبحثان حتى

---

(١) الورقة ١١٦
(٢) الأغانى ٢٠ : ٣٥
(٣) المستطرف ١ : ١٩٨

رأيا كوخًا صغيراً فقصداه فإذا نبطى منصرف إلى عمله . ولم يعرفهما النبطى ، ولكنه رحّب بهما . وقدّم لهما الطعام وكان كُرّاثًا وبصلا وخبز شعير وزيتًا ، فلما أكلا قال المهدى لعمر : قل فى هذا شعراً ! قال :

إن مَنْ يُطْعَمُ الرُّبَيْثَاءَ بالزَّيـ ـت وخبزِ الشعير والكُرّاثِ
لحقيـقٌ بصفعةٍ أو بِشَتْتَيْـ ـنِ لِسُوءِ الصنيعِ أو بثلاثِ

وكان الخليفة قد أعجبه قِرى الرجل وعطفه — وهو الفقير — فقال للشاعر : بئس ما قلت ، ليس هكذا ولكن :

لحقيـق ببـدرة أو بشتيـ ـنِ لحسن الصنيع أو بثلاث

والقصة بعد . تقول إن المهدى منح الرجل الفقير ثلاث بدرات[1] . وهى إن كانت لا تدل على أنها وقعت فى البصرة — ويحتمل أن تكون — فإنها تكشف عن حياة هذه الطبقة التى غنى بآلامها أمثال أبى الشمقمق وأبى فرعون ، والتى اهتمت بالرغيف فتحدث عنه شعراؤها وأفرطوا فى الحديث .

ونبقى بعد ذلك حياة أخرى لمثل هؤلاء لم يصوّرها الشعر ، وإنما صورتها الأخبار والأحاديث العابرة . وقد حدثنا عن هذه الحياة خالد بن يزيد مولى المهالبة بالبصرة . وكان فى حداثة سنّه يخالط المكدين والمستعرضين والشحاذين والعوائين وأكلَ الزكورىّ ثلاثين عامًا[2] . ويبدو أن هذه الفئات كانت من الزط الذين قلنا عنهم فى الباب الأول إنهم كانوا بالطفوف يتتبعون الكلأ . وذكرهم ابن خلدون فقال : « الزط قوم من أخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد . وولوا عليهم رجلا منهم اسمه محمد بن عثمان ، وقام بأمرهم آخر منهم اسمه سماق[3] . والأمر فى أكبر الظن راجعٌ إلى أن أحداً

---

(١) الوزراء والكتاب ١٤٦ ، ١٤٧ والربيثاء : نوع من خسيس السمك

(٢) راجع البخلاء ٣٩ والتكدية : الاستجداء والاحتيال للمال ، المستعرضون : الذين يعرضون للناس فى ثياب حسنة ويسألون بصوت خفيض كأن بهم خجلا ، العواءون : الذين يسألون بين المغرب والعشاء فى غناء . الزكورى : خبز الصدقة .

(٣) العبر ٣ : ٢٥٧ (ط . بولاق ١٢٨٤)

من هؤلاء لم يكن شاعراً ، إن لم تكن عربيتهم على درجة من الانحطاط والعجز بحيث وقفت معوّقًا لهم عن الإبانة والإفصاح ، وقدْ وصف الأصمعى أسلوب حديثهم ، فقال :

حديثُ بنى زطٍّ إذا ما لقيتَهم كنَزْوِ الدَّبَى فى العرفج المتقارب (١)

أجل ، لقد عرضت الأخبار لبعض صور من حياة هؤلاء الفقراء ، ويعتبر بخلاء الجاحظ صورة نادرة لهذه الطائفة ، ونقل عنه البيهقى جوانب كثيرة (٢) ، فعرفنا الكثير عن فقراء البصرة ، البعيد منهم والقريب ، سكان الأبلة وسكان الزابوقة (٣) .

المظهر الرابع :

وليكن هذا المظهر آخر جانب من جوانب الشعر الذى صوّر حياة البصرة فى انفعالها بالأحداث الجارية . ليس هو الأخير على أية حال ، لأنا لا نريد حصراً ولا نقصد تحديداً ، وإنما هو أبرز ما يعنينا بعد ما قدمناه . كان هناك هجاء وفخر ، وكان هناك رثاء وطرد ، وكان الشعراء يتناولون دقائق الحياة بالعرض والتصوير والنقد ، وبرز منهم من يجيد المدح كبشار وأبان وسلم وسعيد ابن وهب ، ومن يحسن الرثاء كأبى حية النميرى والحارثى عبد الملك بن الرحيم وعمارة بن عقيل وأشجع السلمى ومن يتفنن فى الهجاء كخالد النجار والحمّاز والخارجى وغيرهم .

كانت تلك حياة الشعر . نظم فى هذه الفترة من حياته فى أغراض نظم فيها قبل ، ولكنه عنى بتصوير النقلة السياسية التى عاشها القرن الثانى ، وهذا ما دعانا إلى أن نرى كيف تشكل فى عَرْضِه للسياسة كما تشكل فى استعماله فى

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٤ والطريف أن الجاحظ يروى أن محمد بن الجهم قد التوى لسانه من طول احتكاكه بالزط فى حروبه معهم ، والدبى : الجراد واحدتها دباة .

(٢) راجع المحاسن والمساوى ٦٢٢ وما بعدها

(٣) راجع مثلا البخلاء ١١٣

الوصف والخلاعة . أتراه عرض للخلاف بين العلويين والعباسيين وكانوا شيعة واحدة ضد بنى أمية ؟ أتراه ظاهر الخلفاء على منافسيهم فى مشكلة ولاية العهد ؟ أتراه نقد سياسة الدولة فى تشجيعها الشعوبية ؟ أتراه تتبع حركات المصر فى ائتلافه مع الأمير أو فى خروجه عليه ؟

هذه هى الأمور التى نريد أن نخصها بالعناية هنا ، لأنها ألصق بالحياة الاجتماعية من فن كالمدح إن يدل على شىء فعلى ملق واحتيال للمال ، أو من فن كالفخر فيه ما فيه من الكذب والبهتان والادعاء ما لا يحتمل التصديق ، أو من فن كالرثاء عديم الأثر فى معاش الأفراد وفى سعيهم وراء أسباب الحياة .

على أن الشعر السياسى بعدُ وبرغم ذلك كله فيه حماسة وفخر ومدح لمن يبحث عن مثل هذه الفنون ، ثم هو يرسم الخطوط لاتجاه الدولة : على الأقل طوال المدة التى عاشها الخلفاء أقوياء ، وإن يكن وقفنا على انتفاضات الثائرين . وفى داخل الإطار العام نرى إقليم العراق مقراً للمعارضة السياسية أيام الأمويين ، فلما قامت الدولة العباسية منتصرة للهاشميين (سواء منهم العباسية والعلوية) تغير الوضع قليلاً ثم تغير ثانية بازورار الدولة عن الشيعة . ولما لم يكن لهؤلاء حزب كحزب الخوارج مثلاً ، فإنهم اقتصروا على الاحتجاج والشكاة ، وربما التمسوا لخصومهم الأمويين عذراً ، فقال قائلهم :

أرى أمية معذورين إن ظلمـــوا ولا أرى لبنى العباس من عذر

كما قال أبو عطاء السندى :

يا ليت جور بنى مروان عاد لنا يا ليت عدل بنى العباس فى النار

وربما التمسوا لخلفائهم فى الكفاح — العباسيين — هذا العذر نفسه فيموّه السيد الحميرى شاعرهم[1] إلا أنهم عاشوا لا يقدرون على أن يشغلوا الدولة كما

---

(١) المطلع على تراث ذلك الشاعر البصرى يلحظ خلوه من روح المعارضة ، بل يحس أن علاقة شيعته بالعباسيين لم يكن يشوبها كدر ما

شغلها الخوارج فى العصر العربىّ الخالص .

وكأنما كان ذلك العصر بما فيه من بداوة وعنجهية وفصاحة يهيئ الحياة للشعراء الثائرين أصحاب القوة والموهبة واللسان ، فكان شعرهم أروع صورة للإنتاج الحرّ الذى يستهدف إلغاء العصبيات ، ويؤلف بين الأزد وتميم ويجمع كلّ الموالى ليكونوا حربًا على دمشق .

ثم لما تضعف تلك البداوة ، وتلين الألسن ، وتخور العزائم ، يبرز الشيعة ضعفاء ثم تنصرف عنهم الحياة إلى البرامكة ، ويتحول شعرهم إلى تحقيق غايات نفعية فيمدحون ويهجون ويستعينون بفنهم على الكسب .

وأما البرامكة ففى رأيى أنهم من أقوى الأسباب فى تلوين الحياة الاجتماعية باللون الأعجمى . لقد بهروا الشعراء ببذلهم وسخائهم فامتدحوهم وكشفوا عن حياتهم فشغف بها الناس وأقبلوا عليها وأخذوا بها ، وخرج إليهم كثير من شعراء البصرة .. ربما تعصبًا لهم ، وربما رغبة فى عطائهم ، وربما للأمرين معًا فمثلوا هذا الجانب النفعى الخطير ، ومهما يكن من شىء فإننا نستطيع أن نجمل الحياة السياسية خلال الحقبة التى نؤرخ لها فيما يلى على أساس أن يكون هناك :

١ ــ العباسيون وكانوا أصحاب الأمر ، فالتفّ حولهم الشعراء ، وقد تصدوا لإثبات حقهم فى الخلافة .

٢ ــ البرامكة وكانوا المتصرفين فى الأمر ، وجذبوا إليهم الشعراء يمنونهم بالبذل الكبير ، فتغنى هؤلاء بمجدهم ، فصاروا خير دعاة للشعوبية .

٣ ــ العلويون وكانوا مع العباسيين فى أول أمرهم ضد الأموية ، ولما تبينوا عجز شكواهم عن تحقيق أملهم انصرفوا عنهم وقالوا بالمهدى المنتظر ، ونادوا بالرجعة ، وأخذوا بالتقية لتكون وسيلة يستترون بها ضعفهم .

٤ ــ الأمويون وكانوا المغلوبين ، لم يجدوا من يدافع عنهم إلا القليل ، بل لم يستطيعوا أن يكونوا معارضة واضحة للعباسية .

* * *

أما العباسيون فقد أحسنوا اختيار فرصتهم فى الظهور ، وكان ذلك على أيام هشام . وانتهزوا فرصة إصابة خراسان بالقحط المدمر سنة ١١٥ وانتشار الطاعون فى البصرة والكوفة سنة ١١٦ فبدأ دعاتهم فى العمل وعاثوا فى خراسان فساداً ، فكتب عاصم بن عبد الله أميرها إلى هشام يقترح ضم الإقليم إلى البصرة ليسهل الإشراف عليه ، ولم يجهر العباسيون فى دعوتهم إلا حول سنة ١٣٠[١] .

والعجيب أن أهل البصرة وهى التى عاش مواليها فى حرب مع الأمويين تناهض هذه الحركة ، وكأنما ساءها أن يحالف العباسيون اليمن وربيعة[٢] . ولما يستقم الأمر لهؤلاء العباسيين يرسلون سفيان بن معاوية قائدهم ليحارب البصرة وهى تحت قيادة سلم بن قتيبة . ويوجه السفاح عمه سليمان بن على والياً عليها وعلى أعمالها[٣] . ويبدو أن البصريين قد أمنوا قليلاً وأحبّ شعراؤهم — وهم موال فى أغلبهم — سياسة الدولة القائمة على التسوية بين العرب والعجم ، فاتجه هواهم نحو الجالس على العرش . بل إن بشاراً ينسى آصرته بخراسان ، ويحمل على الثورة فيها عام ١٤١ ويقول للمنصور :

فقل للخليفة إن جئته ... نصيحاً ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروبُ العدى ... فنبِّهْ لها عمراً ثم نم
فتًى لا ينام على دِمْنَةٍ ... ولا يشرب الماء إلا بِدِم[٤]

وعمر هو أبو جعفر عمر بن العلاء قائد الخليفة ، ويقال إن بشاراً هجا ذلك الخليفة بميميته المشهورة التى أولها :

أبا جعفرٍ ماطولُ عَيْشٍ بدائم ... ولا سالمٌ عما قليلٍ بِسَالم

---

(١) راجع القسم الثانى من الطبرى ٣ : ١٥٦٠ — ١٥٦٤ ، ١٥٧٣ ، ١٩٤٩

(٢) راجع القسم الثالث من الطبرى ١ : ٢٢ وقد هجا رؤبة هذا الحلف (انظر مشارف الأقاويز ١٢٨)

(٣) القسم الثالث من الطبرى ١ : ٧٣

(٤) القسم الثالث من الطبرى ١ : ١٣٦ وفى الأغانى ٣ : ١٩٣ ، ٢١ : ٧٥ باختلاف يسير ؛ ودمنة : حقد

لا نستطيع أن نتأكد من ذلك، بل يخيل إلينا أن الشاعر لم يناد أبا جعفر لأن سياق البيت يوحي بأن المخاطب هو أبو مسلم ، والصلة واضحة بين هذه الكنية وبين سالم . والأمر على أية حال لا يخلو من غرابة ، فقد كان لا بدّ للشاعر أن يهجو أبا مسلم وقد قتل بعد أن أصبح شوكة فى جنب المنصور ، ولم ينس أن يعرض للأمويين فقال :

كأنّك لم تسمعْ بقَتْلٍ متوّجٍ
عظيمٍ ولم تسمعْ بفَتْكِ الأعاجمِ
تقَسَّم كِسْرى رهطُه بسيوفهم
وأمْسَى أبو العباسِ أحلامَ نائمِ
وقد كان لا يَخشى انقلابَ مكيدة
عليه ولا جَرَّىَ النُّحُوسِ الأشائمِ
مُقيمًا على اللذاتِ حتى بَدَتْ له
وُجُوه المنايا حاسِرَاتِ العمائم
ومَرْوانُ قد دارتْ على رأسِهِ الرَّحى
وكان لِما أجرمْتَ نَزْرَ الجرائم[1]

ويستمر ولاؤه للدولة بعد اتصاله بآل سليمان بالبصرة وتنعمه بعطائهم ، وحَظِىَ عندهم بمركز رفيع ، حتى إنّ أحداً لم يكن يتعرض له عند دخوله عليهم[2]. ولما استوزر المهدى يعقوب بن داود وعلت مراكزه عنده، لم يعجب ذلك الشاعر ، وفى ذات صباح دوّت أرجاء البصرة ببيتين له يقول فيهما :

بنى أميةَ هُبوا طال نومكم إنّ الخليفةَ يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطّلبوا خليفة الله بين الدف والعود[3]

أكان يهجو الخليفة ؟ ربما ، فالمهدى كان حربًا عليه لزندقته ومجونه !

---

(١) الأغانى ٣ : ١٥٦ وأبو العباس هو الوليد بن يزيد
(٢) السابق ٣ : ١٦٧
(٣) القسم الثانى من الطبرى ١ : ٥٠٨

ولماذا ناصب يعقوب العداء ؟ الأخبار تقول إن الشاعر مدحه ولم يعطه شيئاً فتعرض له[١]. ولما تولى أخوه صالح البصرة قال له بشار :

هم حملوا فوق المنابر صالحاً أخاك فضجت من أخيك المنابر

وكذلك كانت الخصومة . وكان أن اجترأ يعقوب فدخل على المهدى ببيتين يزعم أنهما لبشار يقول فيهما :

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدَّبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره . . . . . [٢]

والشطر المحذوف فيه فحش شديد! ونحن لا نستكثر البيتين على الشاعر ، ولكنا نستبعد أن يكون هو صاحبهما . وأن يهدر بهما فى حلقة من حلقات يونس النحوى ليكون التشهير أعظم والإيلام أكبر !

على أية حال كان هذا هو موقف الشاعر من العباسيين وكان هو موقف الشعراء الآخرين . لا نستثنى منهم إلا القليل كأبى الفضة ودرست المعلم . والأول يقول :

أميرنا يرتشى وحاكمنا يلوط والرأس شرُّ ما راس
لا أحسب الجور ينقضى وعلى الأمة والٍ من آل عباس[٣]

على أن هذا قليل . والأغلب فى صفّ العباسية ، حتى السيد الحميرى شاعر الشيعة الكبير مدحهم ، كما مدحهم سلم الخاسر بعد مدحه العلويين ، فقال :

فقد حلفت يميناً غير كاذبة يوم المغيبة لم يقطع لها سبب
ألا يحالف مدحى غيركم أبداً ولو تلاقى علىّ الغرض والحقب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية ما فاتك الطلب[٤]

---

(١) الأغانى ٣ : ١٩٤
(٢) القسم الثانى من الطبرى ١ : ٥٣٨ والأغانى ٣ : ٢٤٣
(٣) طبقات ابن المعتز ٣٧٩
(٤) الأغانى ٢١ : ٧٩

ومدحهم أبان اللاحقى برغم تشيعه للعلويين كالبرامكة ، فقال عارضاً لمشكلة الحكم :

نشـــدت بحق الله من كان مســـلماً
أعُم بمـــا قد قلتـــه العجم والعـــرب
أعم رســـول الله أقـــرب زلفـــةً
إليـــه أم ابنُ العم فى رتبـــة النســـب
وأيهمـــا أولى به وبعهده
ومن ذا له حق التراث بما وجب
فإن كان عباس أحق بتاكمُ
وكان علىٌّ بعـــد ذاك على سبب
فأبنـــاء عبـــاس هم يرثونـــه
كما العمّ لابن العمّ فى الإرث قد حجب[1]

ومن مديح السيد الحميرى لهم مع أنه كان من غلاة الشيعة قوله :

دونكمـــوها يا بنى هـــاشم فجدّدوا من عهدها الدارسا
دونكمـــوها لا علا كعبُ مَنْ كان عليكم مُلكهـــا نافســـا
دونكمـــوها فالبســـوا تاجَهـــا لا تعـــدَموا منكم له لابسا
لو خـــيرّ المنـــبر فرسانَـــه ما اختـــار إلا منكمُ فارسا
قد ساسهـــا قبلكم ســـاسةٌ لم يتركوا رطبًا ولا يابِسا[2]

ومدحهم أشجع فأسرف حين قال :

نقص من الدين ومن أهـــله نقص المنـــايا مـــن بنى هاشم[3]

---

(١) الأوراق ١٤
(٢) الأغانى ٧ : ٦
(٣) السابق ١٧ : ٣٦

وكان قد قال للرشيد :

ما رعى الدين والدنيا على قدم بمثل هارون راعيه وراعيها[1]

نقول مدحهم هؤلاء ومدحهم غيرهم ممن انقطع لهم كأبى نواس، إلا أنهم لم يستريحوا كما استراحوا إلى حديث الشعراء عن حقهم الشرعى فى الخلافة . ولم يجد البصريون بدًّا من أن يروّجوا لفكرة العباسية؛ فالخلافة حق اغتصب من الهاشميين . تراث أسلمه أبو بكر وعمر وعثمان إلى بنى أمية ، ويجب أن يعود إليهم . فلا على السيد الحميرى إلا أن يقول إذن :

منعوا تراث محمد أعمامه وبنيه وابنته عديلة مريما
وتآمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثما[2]

ولا يكاد شاعر العباسيين الأكبر مروان بن أبى حفصة يقول :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثةُ الأعمام

ليبعد آل علىّ الذين يرون أنهم أقرب الناس إلى النبى وأنهم أحقهم بميراثه حتى يعرف أبان طريقه إلى قلوب العباسيين فيقرر أنهم أحق من يرث عليًّا على ما قدمنا . ثم يقول فى محاجة قوية :

أعَمُّ نبىِّ الله أقرب زلفةً إليه أمِ ابن العم فى رتبة النَّسَبْ
وأيهما أوْلى به وبعَهْده ومن ذا له حق التراث بما وجبْ
فإن كان عباس أحقّ بتلكم وكان علىٌّ بعد ذاك على سببْ
فأبناءُ عباسٍ هم يَرِثونه كما العمُّ لابنِ العمّ فى الإرث قد حَجَبْ
وفى حَسَنٍ إذ قلتمُ فيه حجة فقد باعَها لا ينكرُ الناس أو وَهبْ
وَهبْه كما قلتم . وليس كذاكمُ أما زادكم عنها المطالب واغتصبْ
فأهملتموها لم تَرَوْا حيلةً لها إلى أنْ أرادَ الله إتمام ما أحبْ

---

(١) الأغانى ١٧ : ٤٨

(٢) السابق ٧ : ٨

فحظ بنى مروانَ منها وحظكُم ... مع الغيظ والحرمان والعيلة الحربْ
فقام بها من لم يكلها إليكم ... ومن هو أولى بالذى بُزَّ واستلبْ
إمام بنى العباس حين سما لها ... وبالله فيما رام أدرك ما طلَبْ
فشرّد أهلوه وأوْدَى وصيـة ... بحبس ابنِ مروانٍ فسلم واحتسبْ
فإن كانت القربى فهم أهل حقّه ... وهم أهلها إن كان حقٌّ لمن غلبْ[1]

تقريرية تتفق وعقلية ذلك الشاعر المثقف . وقد لحظ طه حسين أنه ذهب فى تلك البائية مذهب الفقهاء وأصحاب المناظرة[2].

وإذا كان أبان قد شغلته هذه المشكلة فإن أشجع اتجه نحو مشكلة ولاية العهد، فينضم بذلك إلى سائر الشعراء الذين أدلوا بدلوهم فيها. وقد روى أن الرشيد لما عقد البيعة لا بنيه وكتب بينهما كتاباً علقه فى سقف الكعبة ، أنشده أشجع :

قـل للإمـام ابنِ الإمام ... أهـل التحيـة والسـلام
إن الخلافـة لم تـزل ... بيـديك موثقـة الزمـام
اسـتأنس الحرَمَـان منـ ... ـك بزورة فى كلِّ عام
قَضَّيْتَ نسكك وانصرفـ ... ـت بخير ظعن أو مقـام
وكتبت بـين خليفتيـ ... ـك كتابَ قطعٍ للخصـام
قلدتـه عنقيهـما ... بشهـادة البيت الحرام
والمسـلمون شـهود ذ ... لك بين زمزمَ والمقـام[3]

وتقفنا الأخبار على أن الشعراء أكثروا فى مدح الأمين . ولم يقل أحد منهم فى المأمون شيئاً ، فطلب إلى أشجع أن يمدح المأمون ، فقال :

بيعـة المأمون آخـذة ... بعنـان الحق فى أفقـه
أحكمت مرآتهـا عقـداً ... تمنع المختـال فى نفقـه

---

(١) الأوراق ١٤
(٢) راجع حديث الأربعاء ٢٢٤
(٣) الأوراق ٨٨

لن يفك المرء ربقتها أو يفك الدين من عنقه
وله من وجه والده صورة تمت ومن خلقه[1]

وكان أبو نواس قد قال :

ألا ترى ما أُعْطِيَ الأمينُ أُعْطِيَ ما لم تره العيونُ
ولم تكن تبلغه الظنونُ ولىُّ عهدٍ ماله قرينُ
ولا له شِبْهٌ ولا خدينُ أستغفر اللهَ : بلى هارون
يا خيرَ من كان ومن يكونُ إلا النبيُّ الطاهر الميمون[2]

وقد كان هوى سلم الخاسر مع المأمون فقال :

بايع هارون إمام الهدى لذى الحجى والخلق الفاضل
المخلفِ المتلفِ أموالَه والضامن الأثقالِ للحاملِ
والعالمِ الناقدِ فى علمِه والحاكمِ الفاصلِ والعادلِ
. . . . . .
فتم بالمأمون نورُ الهُدَى وانكشف الجهل عن الجاهل[3]

ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول فى الأمين :

قد بايع الثقلان فى مهد الهُدَى لمحمدِ بنِ زبيدةَ ابنةِ جعفرِ
ولَّيته عهدَ الأنام وأمرَهم فدمغت بالمعروف رأس المنكر[4]

ولا ضرورة لتوكيد هذه الظاهرة فهى أقوى من أن تحتاج إلى تدليل ، فقد شغلت كلَّ مصر وشغل بها كل شاعر ، بل لعل مشكلة لم تنل مثلها عناية سوى مشكلة الخلاف الذى نشب بين الأخوين ابنى الرشيد . وفى التحامهما أسهم البصريون فى المعركة بأسلحتهم وشعرهم . وكانوا فيما يبدو معجبين بمحمد ابن يزيد قائد الأمين ، فلما قتل بعد جهاد مرير رثاه بعض أهل البصرة بقوله :

من ذاق طعم الرقاد من فرح فإننى قد أضَرَّ بى سهرى

---

(١) الأغانى ١٧ : ٣٨
(٢) ديوانه ٤١٣
(٣) القسم الثالث من الطبرى ٢ : ٦٥٢
(٤) القسم الثالث من الطبرى ٢ ٦١٠ - والأغانى ٢١ : ٨١

ولّى فتى الرُّشْدِ فافتقدت به قلبي وسمعي وعزني بصري[١]

وبينما يتردد البصريون فى موقفهم ، فيكون واحد منهم كابن أبى عيينة مع المأمون يمدحه ويثنى على قائده طاهر بن الحسين . نرى أبا نواس والخليع يقفان فى صف الأمين . والشاعر الأخير يضرب مثلاً رائعًا للوفاء فى حبه للمخلوع ، ولا يكاد المأمون يصل إلى بغداد ويطرقها بجيوشه ثم يقف حتى يقول :

أمـينَ الله ثِقْ باللّـ ـه تُعْطَ الصبرَ والنصْرَهْ
كلِ الأمـرَ إلى الله كلاك اللهُ ذو القـدرهْ
لنـا النصـر بعـون اللّـ ـه والكـرةُ لا الفـره
وللمـرّاق أعـداءٌ لك يومُ السـوء والدبـره
وكأس تلفظ المـوت كريهـا طعمهـا مـره
سُـقينـا وسَقيناهم ولكنْ بهـمُ الحـره
كذاك الحـرب أحيـانًا علينـا ولنـا مـره[٢]

فلما قتل الأمين ووصل نبأ موته إلى الخليع لم يصدق على ما يذكر الطبرى وطمع فى رجوعه ، فقال :

يا خير أسرته وإن زعموا إنى عليـك لمثبت أسـف

وذلك فى قصيدة طويلة جيدة صرح فيها قائلاً :

هيهات بَعْدَكَ أن يدومَ لنا عزٌّ وأن يبقى لنـا شرف[٣]

وشاركه أبو نواس فى فجيعته ، فقال :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشـر
فلا وصل إلاعبرة تستديمهـا أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شيء عليه أحاذر

---

(١) القسم الثالث من الطبرى ١ : ٨٥٤
(٢) السابق ١ : ٨٥٥ ، ٨٨٢
(٣) المصدر نفسه ١ : ٩٤١

لئن عمرت دور بمن لا أوده فقد عمرت ممن أحبُّ المقابر (١)

وفى الجانب الآخر نرى قائد المأمون عبد الله بن طاهر يتيه بقتله الأمين ، فيزهو على العرب بقومه ، وتتاح الفرصة لتظهر العصبية عنيفة ، يقول عبد الله :

انظرِ المخلوعَ كلكلـه وحواليـه المقـاويـل
فثَوى والترب مضجعُـه غالَ عنـه ملكَه غـول
قاد جيشًا نحـو نائلةٍ ضاق عنـه العرضُ والطول

وفيها قوله :

وأبى مـن لا كفاء له من يساوى مجده . . قولوا

فيستاء العرب أن يقتل ملك عربى بسيف أخيه فيقول أحد بنى أمية فى البصرة :

يا بن بيت النـار موقدهـا يـا لحـاذيه سـراويل
من حسين من أبوك ومـن مصعب غالتكمُ غـول
نسب فى الفخر مؤتشـب وأبوّات أراذيـل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مطلول (٢)

وهكذا يضطرب الشعراء مع الأحداث . ويأخذون بالعباسية أخذاً مختلفاً . ولكنهم كانوا فى كل الحالات يؤكدون أن الحياة الأدبية فى البصرة قد اتسعت لكل شىء ، لشعر الأحداث السياسية يقال فيها . وشعر الأحداث يأتى إليها . يقوله شعراؤها ويقوله غير شعرائها . فتعيش هى به وتتأثر له وتروح كل يوم ترتقب الجديد .

* * *

هذا عن العباسية . أما الأمر مع البرامكة فكان له طابع آخر لم يستطع أن يثمر فى الناحية السياسية وإن كان أثمر فى الحياة الاجتماعية . لقد اتسع نفوذ هذه

---

(١) ديوانه ٥٨١

(٢) راجع الفرج بعد الشدة ١ : ٧٤ ، والأغانى ١١ : ١٢

الأسرة وقوى سلطان أفرادها ، وكان من الممكن أن يُقْصُوا الخليفة كما فعل الأتراك بعدُ وكما فعل البويهيون ، لولا أن قيض الله للخلافة واحداً كالرشيد أزاحهم من الدولة وقضى على مكانتهم ، فضاع للشعوبية ميدان فسيح كانت تصول فيه وتجول .

إذن كيف ظهرت البرمكية فى الشعر ؟

لقد ذكرنا قبلُ أن شعر الموالى ينتهى إلى تمجيد الكسروية ، وكان من الممكن أن ينسى البرامكة هذه الظاهرة لولا أنهم كانوا يعملون بحذر يخشون قوة الخليفة ، واكتفوا بأن يمجدهم الشعراء ليقفوا نداً له . ومن هنا كان شعراء البرامكة مدّاحين ، والذين انقطعوا لهذه الأسرة الفارسية لم يعدموا وسيلة للوصول إلى الخليفة نفسه ، فتم بذلك عملية التمويه على خير وجه .

وكانت هناك ظاهرة فذة ، هى أن الشاعر البصرى لا يكاد ينتشر أمره فى مصره حتى يرحل إلى بغداد متصلاً أولاً بالبرامكة ، وقد ينقطع لهم ويختص بهم ، أو ربما يخلص لواحد منهم بعينه . فسلم مثلاً لا يريد أن يتحول عن الفضل بن يحيى ، ويحبه الفضل حتى ليقول أبو العتاهية [1] :

إنما الفضل لِسَلْمٍ وحدَه ليس فيه لسوى سلم درك

وكأن الشاعر لم يسرف حين أنشد [2] :

وكيف تخاف من بؤسٍ بدار تكنفها البرامكةُ البحور

وقوم منهمُ الفضل بن يحيى نفير ما يوازيه نفير

بل كأنه يريد أن يسلب العرب خصلة عرفوا بها وحرصوا عليها وهى خصلة الكرم ، وإلا فهل يقلّ البرامكة جوداً عن الذين تغنوا بالجود ، لا خصوصية وإنما الأمر مشاع ، يكون المنح والمنع بما يتفق وطبيعة الأشخاص لا بما يتلاءم مع فطرة الأمم .

---

(١) الأغانى ٢١ : ٧٣

(٢) القسم الثالث من الطبرى ٢ : ٦٣٣

وليس الأمر كذلك فقط ، ذلك أن العرب إذ يتصفون بالذكاء وحضور البديهة ، فإن الفضل بدوره صاحب رأى سديد وإدراك لامح . ألم يعجز الرشيد عن أمر حَزَبه ، فلم يستطع أحد أن يشير بالرأى سوى الفضل؟ إذن فليقل سلم[١] :

بديهتـــه وفـــكرته ســـواء إذا ما نابه الخطب الكبير
وأحزم ما يكون الدهر رأيا إذا عىّ المشاور والمشـــير

وكان الفضل علويًّا ، فلا بدّ أن يكون سلم كذلك ، ولا بدّ أن يمدح العلويين . فإذا سمع المهدى بمدحه ، يتوعده ويهمّ به فيسرع إلى قول بائيته التى قرأناها والتى يقول فيها :

فقد حلفت يمينًا غير كاذبة يوم المغيبة لم يقطع بها سبب
ألا يحالف مدحى غيركم أبداً ولو تلاقى علىّ الغرض والحقب

مداهنة لا شك فيها ، ساعدت الشاعر على أن يعيش كما يشاء ، وعلى أن يَبُثَّ سموم الشعوبية فى خفاء لم يفطن إليه الخليفة إلا بعد أن استفحل الشرّ.

نرى ذلك أيضًا عند أشجع وكأنه صورة من سلم ، فهو ينقطع إلى جعفر بن يحيى ويقول فيه[٢] :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله فى الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالى نفسها والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته الملوك تراجعـــوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الألى بعـــد الخلائف سادةُ الأنس
ماضرّ من قصد ابن يحيى راغبًا بالسعد حلّ به أم النحس

وبمثل تلك الأبيات ينال البرامكة كلّ ما يشتهون، ولولا خشية الشاعر

---

(١) الأغانى ٢١ : ٨٣
(٢) السابق ١٧ : ٣٣

هؤلاء الخلائف لصرح بأنهم دون البرامكة ! على أنه يقرر لهم سياسة عادلة وقوة هائلة ، ويُفيض عليهم من صفات الجود ما لا يمكن أن يكونوا به دون الخليفة نفسه يقول[١] :

كم فرّق الدهر بأسبابه ... من محصنٍ أهلا وكم زوّجا
وكم به الرحمن من كربةٍ ... فى مدة تقصر قد فرّجا

هذه حقيقة ، والحقيقة الأخرى أن الشاعر كان مثلهم شيعيًّا أو كان إماميًّا على ما يقول الصولى[٢].

وإذا عرضنا لأبان رأينا الاتجاه نفسه ، فهو ينقطع إلى البرامكة على تشيع ؛ ويخلص لهم ، وينظم من أجلهم كليلة ودمنة[٣] ويقول فى واحد منهم[٤] :

ملك أعير مهابة ... لم يخل قلبًا من وجل
وإذا تنافرت الخصو ... م إليه فى لبس فصل
لا مائلاً لهوى ولا ... عن حق أعداءٍ عدل
أكرم ببرمكَ والداً ... ومن البنين بما نَجَل
لا نبتغى بدلاً بهم ... أبداً ومن أين البدل

إن البرمكى هنا ينازع الخليفة كل شىء ، وهذا ما كانت تستهدفه البرمكية . فإذا عنّ للشاعر أن يتصل بالخليفة فلا بُدَّ أن يحتال ، وقد رغب أبان أن يصل إلى الرشيد فقال له الفضل : إن سلكت مذهب مروان[٥] أوصلت شعرك وبلغتك إرادتك ! قال الشاعر : والله ما أستحل ذاك ! فقال له الفضل : كلنا يفعل مالا يحلّ ، ولك بنا وبسائر الناس أسوة[٦] !

---

(١) الأوراق ٨٧
(٢) السابق ٧٤
(٣ ، ٤) نفسه ١
(٥) نفسه ١٣
(٦) كان هذا الشاعر يذم العلويين تقرباً للعباسية

المداهنة نفسها . . .

أو فلنقل هو النفاق الذى يحدد الملامح الكبرى فى سياسة البرامكة ، واستطاعوا به أن يصلوا إلى ما يريدون من مجد . وإلى أن يسلطوا على أنفسهم الأضواء بحيث غبرت سنون كان الخليفة فيها دونهم . ووجد هؤلاء الشعراء وغيرهم كأبى نواس والرقاشى والعطوى مجالا رحيبًا عند البرامكة يتنفسون فيه . فلما حلت بهم الكارثة وقضى عليهم ، لم يخف أحد منهم شيئًا وجهروا برثائهم ، فقال أبو نواس أو الرقاشى (١) :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا
وأمسك من يُحْدَى ومن كان يحتدى
فقل للمطايا قد أمنت من السرى
وطى الفيافى فدفدًا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفرٍ
ولن تظفرى من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطلى
وقل للرزايا كلَّ يوم تجددى
ودونك سيفًا برمكيا مهندًا
أصيب بسيف هاشمى مهنَّدَ

وكان قتل جعفر فى ليلة سبت . . أول ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة ، فقال الرقاشى (٢) :

أيا سبتُ يا شرَّ السبوت صبيحةً ... ويا صَفَرُ المشئوم ما جئت أشأما
أتى السبت بالأمر الذى هدَّ ركْنَنَا ... وفى صَفَرٍ جاء البلاء مصمما

وقال العطوى :

أما والله لولا قزل واشٍ ... وعينٌ للخليفةِ لا تنام

---

(١) القسم الثالث من الطبرى ٢ : ٦٨٥
(٢) المصدر نفسه ٢ : ٦٨٥

لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعًا ودولة آلِ برمكٍ السلام[١]

وكان الشاعر خائفًا ولكنه كان محبًّا لهم . لم يكن كأبى نواس جرأة ، ولم يستطع أن يقول كما قال بعد أن تولى آل الربيع ملكهم عند الرشيد ومرّ هو على دورهم[٢] :

ما رَعَى الدهـــر آل برمـــكَ يومًا
أن رَمَى ملكهـــم بأمرٍ فظيـــع
إنّ دهـــراً لم يَـــرْعَ حقًّا ليحيى
غـــيرُ راعٍ ذمامَ آل الربيـــع

كأنما كان يريد أن تدول دولة هذه الأسرة العربية ، وذلك يقفنا على مدى عمق تلك الخطة التى كان يجرى على تنفيذها البرامكة . غير أن ذلك لم يمنع من أن يكون لها أعداء فى البصرة وفى غير البصرة ، فلسنا نتوقع أن يهادنهم الجميع ولا بدّ أن نجد من يقول كما قال الأصمعى[٣] :

إذا ذُكِرِ الشِّرْكُ فى مجلس أضاءت وجـــوه بنى برمـــك
وإن تليت عنـــدهم آية أتَوْا بالأحاديث عن مَزْدَكِ

وإذن فإن سياسة البرامكة لم تكن من القوة بحيث تبسط سلطانها على كل مصر أو على كل المصر ؛ فالسنة تقضى بأن يكون ثمة معارضة ، ولكن شعراء البصرة بصفة عامة كانوا يجرون فى فلك البرامكة ، وانتشر شعرهم فى البلد ملوّنًا بهذا اللون من الزلفى والملق .

* * *

ومهما يكن من شىء ، فقد آن الوقت لنأتى — بعدُ — إلى العلوية لتكتمل بهم وبالأمويين صورة الحياة السياسية التى نعرض لها . ولسنا هنا بسبيل معارضة

---

(١) القسم الثالث من الطبرى ٢ : ٦٨٧
(٢) ديوان أبى نواس ٥٨٢
(٣) ضحى الإسلام ١ : ٧٥

قوية على ما ذكرنا ، بل إن هذه الجماعة وقد رأت شتّى حظورٍ وكوابح وضغوط لم تجد ما يضيرها فى أن تمتدح العباسيين. ولقد كان للعلويين شاعر بصرى كبير هو السيد الحميرى ، وكان هذا الرجل يجاهر بتأييد بنى العباس ، وكنا قرأنا سينية له تدور حول ذلك التأييد ، وفيما يلى أبيات أخرى تؤكده وتوثقه قالها فى دخوله على المهدى وقد بايع لا بنيه موسى وهارون[1] :

آليت لا أمـــدح ذا نائل ... من معشر غير بنى هاشم
أوليتهم عنـــدى يد المصطفى ... ذى الفضل والمنّ أبى القاسم
فإنهـــا بيضاء محمـــودة ... جزاؤهـــا الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبى جعفر ... خليفة الرحمـــن والقـــائم
وطاعة المهـــدى ثم ابنـــه ... موسى على ذى الإرْبة الحازم
وللرشـــيد الرابـــع المرتضى ... مفترض من حقـــه اللازم

ربما كان هناك سبب يفسر هذا الموقف من السيد الحميرى ؛ فلقد كان الشاعر كيسانيًّا يقول بإمامة محمد بن الحنفية الذى ورثه العباسيون وصاية[2]، فى حين أن سائر الشيعة يجعلون الإمامةَ فى ولد فاطمة بنت الرسول . إلا أن هذا لا ينفى الحقيقة التى قررناها قبل، وهى أن العلوية مالأت بنى العباس رَدحًا من الزمن ثم لما عجزت عن أن تكون نِدًّا لها لجأت إلى الدموع والشكوى ،وأخذت بالتقية . حتى الحميرى نفسه لانعدم فى شعره ذلك النغم الحزين ،لنسمعه وهو يقول :

امرر على جدث الحســـ ... ـين فقـــل لأعظمه الزكيه
أأعظمـــا لا زلتِ مـــن ... وطفـــاءَ ساكبـــةٍ رويه
وإذا مـــررت بقـــبره ... فأطِلْ به وقْفَ المطيـــه
وابكِ المطهـــرَ للمطهـــ ... ـــر والمطهـــرةَ النقيـــه

---

(١) الأغانى ٧ : ١٣

(٢) راجع الأغانى ٧ : ٥ ، ٩

كبكاء مُعْوِلةٍ أتت يومًا لواحدها المنيه[١]

مثل هذا الشعر هتف به البصريون الشيعة ، ورددوا معه ذلك السباب الذى كاد السيد الحميرى يتفرد به من بين شعراء العلويين ، وتروى الأخبار أن رجلاً أراد أن يعرّض بالسيد فأنشد أمامه :

محمد خير من يمشى على قدم وصاحباه وعثمان بن عفانا

فوثب الحميرى مستاء ثائراً[٢] ، كما تروى تلك الأخبار أنه أراد أن يهجو سوّار بن عبد الله قاضى البصرة فلم يجد إلا أن يقول له[٣] :

إن سوّار بن عبد الله من شَرّ القُضاة
جَمَلِيٌّ نعثليٌّ لكمُ غير موات

وأنشد قصيدة ضاعفت من غضب الرأى العام عليه ، وكان الناس يرونه امتداداً لأبى الأسود الدؤلى . يهدد مذهبهم السنى ، ويُظْهِر خصوم تميم أقوى من تميم واتهم من ثم بالإلحاد ، نقول أنشد هذه القصيدة ليوضح أفكاره وميوله ، قال[٤] :

ألا يا أيها الجدل المعنَّى لنا ما نحن ويْحَكَ والعناء
ألا إن الأئمةَ من قريش ولاة الحق أربعةٌ سواء
عليٌّ والثلاثةُ من بنيه همُ أسباطه والأوصياء
بهم أوصاهمُ ودعا إليه جميع الخلق لو سُمع النداء
فسبط سبط إيمان وحلم وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء

---

(١) الأغانى ٧ : ٧
(٢) السابق ٧ : ١٧
(٣) طبقات ابن المعتز ٣٤ ، وقيل إن نعثلى نسبة إلى نعثل أحد المصريين وكان شديد الشبه بعثمان .
(٤) الأغانى ٧ : ٢٣ ويعنى بالثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنيفة

وفى صراحة مطلقة يعلن[١] :

إنى امرؤ حميرىٌّ غير مؤتَشِب ... جَدّى رعَيْنٌ وأخوالى ذَوُو يَزَنِ
ثم الولاء الذى أرجو النجاةَ به ... يومَ القيامةِ للهادى أبى الحسن

وفى الوقت ذاته كنا نرى المعتزلة يتعرضون للصحابة بالتجريح والنقد وينظرون إلى كثير من أحاديثهم نظرة الرَّيْب والمهانة ، فهل ثمة صلة ؟ لعل هذا الاتجاه كان يمدّ السيد الحميرى بشىء من الأيد والتشجيع ! ولما كنا لا نرى هذا الإلحاح عند واحد كدعبل مثلاً ، فإنا نزعم أن البصرة لونت شعره ذلك اللون الفريد .

غير أن البصرة وهى تنصت لسباب الحميرى تشغل من ناحية أخرى بضربات المنصور للشيعة ، ولا تكاد طوائفها تسمع بنبأ القبض على عبد الله بن الحسن وقتل ابنه النفس الزكية حتى تهب إلى أخيه إبراهيم وتلتف حوله ويكون من بينها المعتزلة والزيدية ، وشعر إبراهيم الحزين يتردد فى الآذان :

أبا لمنازل يا خيرَ الفوارس مَنْ ... يفجعْ بمثلكَ فى الدنيا فقد فجعا
الله يعلم أنى لـــو خشيتهمُ ... وأوجسَ القلبُ من خوفٍ لهم فزعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخى لهمُ ... حتى نموتَ جميعًا أو نعيش معا

لا تعنينا آثار هذه الانتفاضة إلا فيما خلفته من شعر قاله دعبل فى ذكر قتلاها[٢] :

قبور بكوفان وأخرى بطيبـــة ... وأخرى بفخ مالهـــا صـــلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلهـــا ... وقبر بياخَمْرَى له القُرُبات

* * *

وتمضى الأيام فيزداد الفتور ، ولا تكون ثم معارضة ، ولا يكون ثم جدال ؛ فإذا انتقلنا إلى ما يتصل بالأمويين لا نرى حالاً أفضل ، بل قد نجد طيراً جريحًا مهيضًا .

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٠٣ (سندوبى)
(٢) مروج الذهب ٣ : ٢٢١

والواقع أن ظروف الحياة كلها كانت لا تتيح فرصة للأموية لتطلّ من جديد ، بل إن السفاح لم يكد يسمع إلى سديف قوله[١] :

لا يغرَّنْكَ ما ترى من رجالٍ إن تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيفَ وارفع السَّوْط حتّى لا ترَى فوقَ ظهرِها أمويا

حتّى قضى على كل الأمويين الذين كانوا بحضرته ! فكانت هذه القصة أشأم نذير لفلول الأموية ، كما كانت أقوى دعامة يستند إليها الشعراء فى تحوّلهم عنها ، فإذا كان مروان بن أبى حفصة الذى يقول[٢] :

بنو مروان قوم أعتقــونى وكل الناس بعدهمُ عبيد

قد تحول بهواه نحو العباسية فلأن تلك سنة الحياة !

وطبعى أن يكون بشار واحداً من هؤلاء المتحولين ، وله مبرراته ؛ فهو مولى وفارسى الأصل ، وهو من الداعين إلى الشعوبية ، ثم هو يطمع فى عطاء دولة قامت على أكتاف قومه ، لذلك لا نستكثر عليه أن يقول هاجياً عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك[٣] :

نفسى الفداء لأهل البيت إنّ لهم عهدَ النبى وتمتَ القائم الهادي
لم يحكموا فى مواليهم وقد ملكوا حكم المحل ولا حلم ابنه العادى

أو أن يقول مرة أخرى :

سَطَوا علينا بأنْ كنا مواليكم وعيّــرونا بآباءٍ وأجــداد
وقد نرى عار قوم فى أنوفهمُ ونترك العيب إذ ليسوا بأنداد

---

(١) طبقات ابن المعتز ٤٠ ، ولقد كان ثمة من حمل على الأمويين أيام الأمويين منهم كعب الأشقرى وعبد الله بن كثير السهمى — الشيعى — والراعى ، والأخير هو صاحب البيت المشهور

بنى أمية إن الله ملحقكم عما قليل بعثمان بن عفان

(راجع البيان والتبيين ٣ : ٢٠١)

(٢) طبقات ابن المعتز ٤٣

(٣) ديوانه ٢ : ٢٩٨ والمحل : هو عبد الملك لأنه قاتل ابن الزبير فى حرم مكة ، العادى : هشام لأن عامله قطع أيدى العباسيين فى خراسان .

ويعرض لمن لا ينى يدعو للأمويين فيقول[١] :

لولا الخليفة أنّا لا نخالفه ... لقد دلفنا لأرواد بأرواد
حتى ترونا وعين الشمس فاترة ... فى كوكب كشعاع الشمس وقّاد
هناك ينسون مروانا وشيعته ... ويطرقون حذار المنسر العادى

وفى نفس هذا الوقت نرى أبا العباس الأعمى يظل حريصًا على ودّ الأمويين ولا يخشى بأس بنى العباس فيقول فى صراحة :

خلت المنابر والأسرّة منهمُ ... فعليهمُ حتى الممات سلام

فإذا سأله سائل قال إن مروان قد أغناه بأربعة آلاف دينار وخلع وحملان فى البصرة[٢] ، غير أن ذلك أمر يسير . حالات فردية لا يعتد بها ، ولا يؤبه لها ، فلقد كانت صدور الغالبية مملوءة على الأمويين موجدة ، وكانوا لا يسمحون إلا أن يكون ثمّ هجاء ، فمن لا يقدر عليه فلا ضير إذا قال[٣] :

أين التطرُّف بالولاء وبالهوى ... أإلى الكواذبِ من بروق الخلب
أإلى أميّة ؟ أم إلى الشيع التى ... جاءت على الجمل الخِدَبّ الشوقب

أو قال[٤] :

ألا يا أمين الله كيف تحبنا ... قلوب بنى مروان والأمر ما ندرى
وما بال مولاهم لِسرك موضعا ... وما باله أمسى يشارك فى الأمر
تبيّن أمينَ الله فى لحظاته ... شنان بنى العاص وحقدبنى صخر

وربما كان بين ذلك القائل — وهو أبو نواس — وبين هذا المولى الأموى الذى يعمل للأمين ضغينة ، وربما كان هذا المولى على خطر كما يزعم الشاعر ،

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠١ ، ٣٠٢
(٢) راجع مروج الذهب ٣ : ٢٠٩
(٣) طبقات ابن المعتز ٣٥ والشعر للسيد الحميرى ، والخدب: الجمل الضخم الشديد ، الشوقب : الطويل .
(٤) شنان : لغة فى شنآن وهو البغض ، العاص : جد مروان بن الحكم والد عبد الله بن مروان ، صخر : اسم أبى سفيان بن حرب بن أمية .

إلا أن الأبيات تدل من بعيد على فداحة الاتهام بالأموية . ولقد ولد أبو نواس ودولة بنى أمية تدول ، ولكنها لم تسلم من شناعته فقال ما قال ، وعاد فأصرّ على قوله حين هجا إسماعيل بن صبيح كاتم سرّ الأمين بتلك الأبيات التالية[1] :

ألا قُلْ لإسماعيل إنك شـــارب ... بكأس بنى ماهان ضربة لازم
أتسمن أولاد الطريد ورهطـــه ... بإهزال آل الله من نَسْل هاشم
وإنْ ذُكِرَ الجعدى أذْرَيْتَ عَبرةً ... وقلت أدال الله من كل ظالم

هذا ونحوه شيء يشبه الاعتراض على حكم الخليفة ، وهو صورة الأموية التى كانت تظهر فى الشعر السياسى . ولم تكن هذه الأموية معارضة فحسب ، بل كذلك كانت مدحًا كما رأينا عند الأعمى وكانت نقداً على الخلافة العباسية .. رأينا ذلك النقد فى أبيات أبى نواس ، ورأيناها فى صرخة بشار التى سمعناها فى قوله :

بنى أمية هبّوا طال نومـــكمُ ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين النـــاى والعـــود

ونراها فى أشعار غير البصريين ، والأمر يطول إذا وقفنا عندها أكثر مما فعلنا ، فلن يغير ذلك من حقيقة قررها الواقع المادى للدولة الإسلامية خلال المرحلة التى نعرض لها بالبحث . تلك الحقيقة هى أن الشعر السياسى فى العصر العباسى قد ضعف بصفة عامة ، إذ لم تكن ثمة أحزاب قوية ، ولم تكن ثمة حوادث خطيرة ، وإنما الأمر يمضى رخاءً باستثناء فتنة الأخوين . وأما الهزات التى كانت تتعرض لها البصرة فيبدو أنها كانت من الأمور العادية التى لا تثير كثيراً ، ومن ثم لم يقف عندها الشاعر فى جدية وفى اهتمام .

* * *

وقد يسأل سائل بعد ذلك عن الخارجية ، ألم يكن لهم نشاط شعرى واضح ؟ والحق أن الإجابة عن هذا السؤال عسيرة لأن أعلام الخوارج

---

(١) ديوانه ٥١٤ والجعدى : لقب مروان بن محمد ، أدال الله منه : انتقم .

انصرفوا فى هذا العصر إلى العلم بصفة خاصة . وإذا كان بقى منهم واحد كأبى حمزة الشارى ، فإنه كان فرداً ، فضلا عن أنه لم يكن شاعراً .

كنا نرى الربيع الفراهيدى البصرى وأبا عبيدة وأبا الشعثاء ، ولكنا لم نر واحداً كقطرى أو كعمران . وهذا هو ما جعلنا نعرض عن التعرض للخوارج فى الشعر .

(٣)

والآن إلى الخط الأخير . . .

ذلك الإرهاص بالمستقبل ، أو بالإيطوبيا التى يجد فيها المجتمع ما ينشده من سعادة ، ولا نريد أن نأخذ أنفسنا بألوان من العناء لتحديد معالم هذه الإيطوبيا ؛ فالشعراء المتقدمون لم تُتَحْ لهم عبقرية بناء المستقبل ، وإنما هى إشارات واهنة إلى حلم غامض ، وتهويمات ليست فيها الإلحاح القوى المصرّ ! ومن المحقق أن الشعراء الذين عاشوا فى ظل الشعوبية والذين دَعَوْا إليها لا بدّ أن تكون لهم « إيطوبياهم » وأن يحرصوا على تحقيقها وإبرازها إلى حيّز التنفيذ العملى ، وإلا فبِمَ نفسر هذه الحملة الرهيبة التى شنت على العرب منذ نهاية العصر الأموى ؟

ليس ينبغى أن ننسى أنّ ما كان للعرب من غلب دينى وسياسى ومن تفوّق فى شدة البأس والنفس ومن عصبية عارمة كاسحة خلال عصر بنى أمية ، قد أثار حفيظة غير العرب على العرب ، ومن ثم كانت الشعوبية بآرائها وسياستها !

ذلك أنه لم يكن من السهل أن ينسى أحد مثلا كتاب الحجاج إلى الحكم بن أيوب عامله على البصرة ، هذا الكتاب الذى جاء فيه : « إذا أتاك كتابى فانف مَنْ قبلَك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا » فإذا لمس ذلك الأمير من عامله تردداً ، أردف كتابه بآخر يقول فيه : « إذا قرأت كتابى فادْعُ مَن

قبلك من الأطباء ونمْ بين أيديهم ليقفُوا عروقك ، فإن وجدوا فيك عرقًا نبطيًّا فاقطعه »[١] .

إذن فالشعوبية هى الحركة التى تحدد ملامح الخط الأخير من خطوط بحثنا ، وهى التى تبيِّنُ سماتِ المجتمع الجديد ، فإذا قال قائل العجم :

فلست بتارك إيوانَ كسرى لتوضَحَ أو لحومل فالدخول

لا نعجب ، بل لا نستكثر أن يصيحَ شعوبىٌّ فى وجه بنى هاشم الحكام قائلاً :

بنى هاشم عودوا إلى نخلة لكم فقد صار هذا التَّمْرُ صاعًا بدرهم
فإن قلتمُ : رهط النبىِّ محمد فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

ومعنى هذا أنَّ مجد كسرى يجب أن يعود ، وأن بنى هاشم من الضآلة بحيث لا يحق لهم بقاء . فإذا ادَّعَى عربى أنَّ محمداً منهم وهو رسول ، فإن من السهل أنْ يقالَ له : وماذا عن النصارى وفيهم المسيح ؟ إن المجتمع الجديد هو مجتمع الفرس ، ويجب أن ينتصر هؤلاء الذين غُلِبوا على أمرهم طَوالَ العصر العربى الخالص .

هذه هى نقطة الانطلاق . . .

وأما الطريق فواضحة ، وليكن الشك هو الأداة التى تهدم ! وكان العربى يعتز بتراثه الشعرى ، يحبه ويقدسه ويحفظه ، يردد كل مايتصل به من أحداث ، ومجرد خدشه يثير حفيظته ، فما بالك مَنْ يأتى له منكراً إياه ؟

ينكره وقد استقر الرأى على أنه لم يأت مشافهةً كله . بل دوّن أغلبه فى صحف كانت لدى الشعراء والعلماء . وقد قرأ أبو عمرو الشيبانى دواوين الشعراء على المفضل[٢] وكان الأصمعى البصرى قد قرأ شعر الشَّنْفَرَى والنابغة والحطيئة من كتب مدونة[٣] .

---

(١) محاضرات الأدباء ١ : ٢١٨
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٦٥
(٣) المزهر ١ : ١٦٠ والموشح ٤٢

كان الإنكار على أية حال وسيلةً لتدمير التراث العربى ، فليقل إذن أبو عبيدة إن البيتين التاليين :

هم هيَّنون وأيسارٌ ذَوُو كرمٍ سُوّاس مكرمة أبنـاء أيسـار
إن يُسألوا الخيرَ يعطوه وإن خُبِروا فى الجهد أدْرِك منهم طيبُ أخبارِ

للعرندس الكلابى يمدح بعض الغنويين لأنه يعلم أن هناك من قد يرده . وقد كان ، وجاءه الأصمعى وقال : محال أن يمدح كلابىٌّ غنويًّا لما بينهما من العداوة[١] .

ووراء ذلك كله حقيقة هائلة هى أن أبا عبيدة كان أجنبىّ الدم ، فى حين كان الدم العربى يجرى فى أعراق الأصمعى . وكان من أهداف مثل أبى عبيدة أنْ يدور النقاش على هذا النَّحْوِ من ترديد الشك ! بل إن هذا الرجل البصرى كان لا يفتأ يقول : «قال خلف : كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها»[٢] ولكى يكون الشك أعتى راح يردد : خلف الأحمر معلم الأصمعى ومعلم أهل البصرة[٣] !

خلف عند أبى عبيدة حجر الزاوية . . .

وهو وضّاع ، كذاب ، وعلى ذلك فلا علمَ لدى الأصمعىّ العربى لأنه تلقاه عن كاذب ، ولا علمَ لدى البصريين لأن علم المعلم نفسه منحول موضوع ! وإذن فالشعر العربىُّ القديم خرافة أو هو مكذوب مختلط مختلق ، وليس من حق العربى أن يزهوَ به ويحرصَ عليه ، ومن شاء العلم فليكن لدى واحد كأبى عبيدة لأن عنده مفاتح الكنوز ، فلا عجب أن يقول إسحاق

---

(١) التنبيه والإشراف ٢ : ٧٢
(٢) الأغانى ٦ : ٩٢
(٣) نزهة الألبا ٧٠

الموصلى — وهو فارسى — للفضل بن الربيع :

عليك أبا عُبيـــدةَ فاصْطَنِعْه فإنَّ العـــلم عند أبى عُبَيْدَه
وقدِّمْـــه وآثِـــرْه عليـــه ودعْ عنـــك القُرَيْد بنَ القريده

يعنى الأصمعى الذى التفَّ حوله العرب وآثروه بمحبتهم . ألسنا نستطيع بعدُ أن نفهم لماذا أنشد الأصمعى بيتيه :

إذا ذُكِرَ الشِّرْكُ فى مجلسٍ أضاءت وجوهُ بنى برمكِ
وإن تُلِيَت عنـــدهم آيةٌ أتَوْا بالأحاديثِ عن مزدكِ

الأمر شديد الوضوح ، فقد أحس هذا العالم العربى خطر الشعوبية ، ورأى ما يفعله الداعون لها فى بلاط الخليفة وسمع مثل ما ردده إسحاق الموصلى . وكان من هذا الشعر الذى مثل جانبًا من جوانب الحياة الأدبية فى البصرة قصيدة ابن أخت تأبط شرًّا :

إن بالشِّعب إلى جنب سَلَعٍ لقتيلا دمُهُ ما يُطَـــلُّ

تردَّد الجاحظ بين أن يكون هو قائلها أو خلف[1]. وذكر ابن قتيبة أن تلك اللامية للراوية نفسه ، وكان من عادته أن يقول الشعر وينحله المتقدمين[2]. ويؤكد ابن عبد ربه أنها لخلف وإنما ينحلها لابن أخت تأبط شرًّا ، والعجيب أن تنسب بعد ذلك إلى الشنفرَى بينما يذْهب أبو تمام إلى أنها لتأبط شرًّا دون سواه[3].

تلك أداة من أدوات التدمير ، هى التشكيك فى تراث العرب الذى يفتخرون به ، وكأن الشعوبية كانت تريد مجتمعًا بلا شعر[4]، وتقوم إزاء ذلك ، حركة بعث للتراث الفارسى ؛ فيؤلف أبو عبيدة كتاب « فضائل الفرس » ؛ وكتاب

---

(١) راجع الحيوان ١ : ١٨٢
(٢) الشعر والشعراء ٧٦٥
(٣) الأغانى ٦ : ٨٦ وأمالى المرتضى ١ : ٢٨ والحماسة ١ : ٣٤٨
(٤) كان أبو دلامة الشاعر يرغب عن الشعر حتى لقد قال للمهدى على ما جاء فى عيون الأخبار (١ : ٢٥٠)

إن كنت تبغى العيش حلواً صافياً فالشعر أعذبه وكن نخاسا

« أخبار الفرس »[١] وتوضع الأحاديث التى تمجد فضل الأعاجم ، النبط منهم والفرس على حدّ سواء[٢].

وهناك أداة أخرى استغلت فى بناء الإيطوبيا الجديدة ، هذه الأداة هى ضرورة التعصب للنسب غير العربى . ومن هنا جاءت عناية الشعراء الموالى بانتسابهم إلى ملوك العجم وذم العرق العربى ؛ فيقول بشار على ما مرّ بنا : فروعى وأصلى قريش العجم ! فإذا سأله المهدى : فمن أى العجم أصلك ؟ أجاب : من أكثرها فى الفرسان وأشدها على الأقران أهل طخارستان[٣] وإذا هجاه عربى كما فعل واحد من بنى المنذر السدوسى قال فيه[٤] :

أمثـل بنى مضر وائـلٌ ... فقَدُتك من فاخرٍ ما أجَنْ
أفى النوم هذا أبا منـذر ... فخيراً رأيت وخيراً يكنْ
رأيتُك والفخـر فى مثلهـا ... كعاجنـة غير ما تَطَّحِنْ

وكان قد قال لأعرابى سَبَّه عند مجزأة بن ثور السدوسى :

أحين كُسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقـار
تفاخر يا بنَ راعية وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار
تريغ بخطبـة كسْرَ الموالى ... وينسيك المكارمَ صيدُ فار
وتغدو للقنافذِ تَدَّرِيهـا ... ولم تعقلْ بدراج الدّيـار
مقامُك بيننا دنَسٌ علينـا ... فليتَك غائبٌ فى حـرِّ نار

لقد عرضت لهذه الأبيات ، وعدت لها لأن فيها الحلم الذى يريد الفرس أن يتحقق . فيها رغبة الموالى فى أن يذهب العرب إلى الجحيم ، وأن يختفوا من الحياة لأنهم دنس على الحياة ، ثم فيها ذلك التيه الجديد ، شمة المجتمع الجديد . وقد مضى الوقت الذى كان فيه الغلب للعربى ، بل جاء الوقت

---

(١) مروج الذهب ١ : ١١٣
(٢) السابق ١ : ١٢٣ وضحى الإسلام ١ : ٧٧
(٣) راجع الأغانى ٣ : ١٣٨
(٤) الأغانى ٣ : ١٥٣

الذى عرف فيه الموالى أنفسَهم وعرفوا من أولاء الذين ينسيهم المكارم صيد فار! هؤلاء هم العرب ، ولذلك يجب أن يبتعدوا عن الحياة ، ولتكن الحياة للموالى بنى الأحرار .

وفعل ذلك أبو نواس ، فبعد افتخاره بنسبه الفارسى على نحو ما مرّ بنا ، راح يرسم تاريخ قومه فى صورة زاهية مشرقة ، وقال وهو بالبصرة[1] :

تدور علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مها تَدَرِّيها بالقِسىِّ الفوارس
فللراح ما زرَّت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القَلانس

ويخيَّل للقارئ هنا أن الشاعر معنىٌّ بما فى الكأس من خمر ، والأمر على غير ما يتخيل ، لأن الشاعر يسلط أضواء فنه على تلك التصاوير الفارسية التى تمجد حياة يريد أنْ يبعثها ، فإذا قال بعد ذلك لعربى :

فنحن ملكنا الأرض شرقًا ومغربًا ... وشيخك ماءٌ فى الترائب والصلب

وثَبَتْ إلينا تلك الصور التى رسمها للفرس ، وتكون مبرراً من المبررات التى تجعله يزعم أن أهله ملكوا مشارق الأرض ومغاربها . ويأتى البرامكة ، فيكون كل واحد منهم نصيراً للشعوبية ، فيقول أبان فى صراحة :

أكرم ببرمكَ والِداً ... ومن البنين بما نَجَلْ
لا نبتغى بَدَلا بهم ... أبداً ومن أين البدلْ

إذن فهذه نزعة جديدة ؛ فلقد كان من عادة الموالى أن ينتسبوا لقبيلة عربية ، وجاء الوقت الذى يجب أن يكون الانتساب فيه إلى غير العرب . وما أعظم أن يجعل امرؤ نفسَه بين أسرة كأسرة البرامكة ! وهذه النزعة من مقومات الإيطوبيا الجديدة ، قويت حتى ضَجّ منها الجميع ؛ فلم يجد أبو فرعون وهو العربى الفقير إلا أن يقول[2] :

ما الناس إلا نَبَطٌ وخوزان ... كَكَهْمَسٍ أو عُمَرَ بنِ عمران

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٠٦
(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ٣ : ٧

وكان يقال إن أهل خوزستان من ألأم الناس ! ذلك ردّ فعل لما كان يحدث فى تلك الحقبة من الزمن ، ويقفنا على النزعة التى كان ينزع إليها العرب كعمل وقائى يدفع عنهم الأذى الخطير .

ولكن الشعوبية هل تكتفى بذلك ؟

إن هناك شيئًا آخر يهتم به العرب ، وباسمه ومن أجله أخرجتهم جزيرتهم. هناك الدين الذى سعوا به يفتحون العالم ويقهرون الشعوبية . فليس بدّ من أن يطعنوا فيه ، وليكن من أهداف الإيطوبيا الجديدة بعث العقائد الفارسية . فإذا قال الأصمعى بيتَيْه اللذين يعرض فيهما لِشِرْكِ البرامكة وعنايتهم بمزدك ، ذُكِر ما روى عن كل شعراء الموالى وما قالوه فى هذا المعنى ، ويكون قول بشار :

الأرضُ مظلمـــة والنـــار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النـــار

صدًى لما يعتمل فى نفسه ونتيجةً لعقائد الفرس ، وهو يتمشى مع ما يُرْوَى عنه من أنه — وقد عاشر قومًا من الحرانيين — كان يكفر جميع الأمة ، ويصوب رأى إبليس لأنه من النار[1]. ولكن ذلك كله دعوة صريحة إلى دين الشعوبية . وإلى نبذ قيم الدين الذى حمل لواءه العرب غازين ! ولا بأس من أن يقول الشاعر الفارسى [2] :

أبونا ويزكٌ وبـــه أســـامى إذا افتخر المفاخِر بالولاده
أبونا ويزك عبـــدٌ رســـول له شرف الرسالة والزهـــاده
فمن مثلى إذا افتخرتْ قرومٌ وبيتى مثـــل واسطة القلاده

فإذا علمنا أن الأقوال تتواتر عن أن ويزك هو إسحاق بن إبراهيم لمسنا ما يستهدفه قوم الشاعر . وهم مهما يكن ، فلا يرتضون دينَ محمد فى إيطوبياهم لأن لهم دينَ إسحاق الرسول الزاهد، ولعل الشاعر بوصف إسحاق بالزهد إنما كان

---

(١) راجع الأغانى ٣ : ١٤٥ وطبقات ابن المعتز ٢٣

(٢) التنبيه والإشراف ١ : ١١٠

يريد أن ينال من محمد الذى كان يدعو إلى الأخذ بمتاع الدنيا أخذه بأسباب الآخرة .

ونتحول إلى أخبار الشعراء البصريين ، فنرى إجماعاً على أنهم كانوا يعبثون بالدين الذى ساد به العرب ؛ فالرقاشى كبشار زنديق يهجوه أبو نواس بالكفر ، وأبان كصالح بن عبد القدوس[1] ملحد يلتحم مع أضرابه من الشعراء فيفضحونه ، وأبو نواس نفسه لم يكن دون أولئك عبثا بالإسلام ، وهو هو الذى كان عالما فقيهاً بالأحكام والفتيا وبطرق الحديث وناسخ القرآن ومنسوخه ، وربما كان يؤدّى الفرائض وربما كان يصوم فإذا أفطر خرج إلى مسجد السلولى بالبصرة ليرقع الإمام الصبيح فى شراكه ، وقد سمعه يقرأ « أرأيت الذى يكذب بالدين» فقال[2] :

وقرا معلناً ليصْدَعَ قلبى والهوَى يَصْدَع الفؤادَ العزوما
أرأيتَ الذى يكذّبُ بالدين فذاكَ الّذى يدعُّ اليتيما

لا نستطيع أن نزعم حُسْنَ نية الشاعر ؛ فى ملابسات الخير ما يبعث فى نفوسنا الإيمان باستهتار الشاعر وبتعمده الإساءة إلى الدين ، وإلا كان عليه أن يتحرج ! ولكنه كان يصرّ على هذا الاتجاه كلما اجتمع بصحبه ، ولنسمعه وهو فى منافسة مع الخليع ومسلم بن الوليد وجماعة من الشعراء فى مجلس شراب فقال مبادراً[3] :

وفتيــة فى مجلس وجوههم ريحانُهم قد أمنــوا الثقيلا
دانيــةٌ عليهمُ ظلالهــا وذُللت قطوفهــا تذليــلا

ولو أن المناسبة غير تلك لحمدنا للشاعر صنيعه ، ولما فكرنا فى أن نميل به عن الصواب . غير أن حياة الشاعر كانت تزورّ به دائماً عن مستقيم السبيل ،

---

(١) لسان الميزان ٣ : ٧٣ (ط . حيدرآباد الدكن — الأولى)
(٢) راجع طبقات ابن المعتز ٢٠١ ، ٢٠٦
(٣) طبقات ابن المعتز ٢٠٧

وكان يتعمد أن يسيء إلى ما يقدسه العرب الذين أذلوا قومه دهراً طويلا . والعجيب بعد ذلك أن يبكى الدمن فلا يجد سوى الجامع والمصلى من الآثار البصرية يذكرها ويحزن عليها[1] :

عفا المصلى وأقـــوت الكتب منّىَ فالمـــربدان فاللبب
والمسجـــد الجامـــع المرؤة والدين عفا فالصّحان فالرحب

هذا هو أبو نواس الشعوبى الذى يعمل على تدمير المجتمع العربى وبناء الإيطوبيا الفارسية حلم الموالى الخطير ، فإذا تركناه إلى صالح بن عبد القدوس وقد طار صيته فى الإلحاد والزندقة[2] برغم ما كان يصدر عنه من ترغيب فى الآخرة قولا وعملا رأيناه يجتمع بأصحابه فإذا حانت الصلاة قام لها وأتمها فيقول بعضهم : أتصلى هذه الصلاة ومذهبك ما تذكر ؟ وتكون إجابته : إنما هو رسم البلد وعادة الجسد[3].

إنها مداراة صارخة ، أخذ بها سائر الشعراء ، فإن وقعت الواقعة بينهم تعاوروا التهم وتكاشفوا ، فإذا كلهم يعمل من أجل هدف واحد هو تحطيم روح المجتمع العربى بتحطيم دينه !

وإلا فلنقرأ من جديد نونية أبى نواس التى يهجو فيها أبان اللاحقى والتى عرضنا لها قبل وأولها :

جالست يومـــا أبانا لا درّ درّ أبـــان

وتعنينا هنا هذه المقابلة التى يهتم بها الشاعر ، ويعمل على تثبيتها فى إلحاح وفى إصرار :

فقلت : سبحان ربى فقال : ســبحان مانى

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٠٥

(٢) راجع لسان الميزان ٣ : ١٧٢ وفيه أنه كان على زندقته يعظ بالبصرة ويقص له مع العلاف مناظرات ، ويقول المرتضى إنه كان متظاهراً بالثنويه ، وناظر العلاف فى الامتزاج الذى ادعوه بين النور والظلمة فأقام عليه الحجة فانقطع (الأمالى ١ : ١٤٤ ط . الحلبى)

(٣) طبقات ابن المعتز ١

فقلت : عيسى رســول فقال : من شيطانِ [١]

ربما لم يكن ذلك صحيحًا ، ربما افتأت أبو نواس فلم يكن هذا كله حقيقة ، إلا أن الملابسات وشتيت المأثور وما كان يذاع عن أبان ومثل أبان ، كل أولئك من غير شك يجعلنا نقبل الخطوط العامة على الأقل إذ ندع التفاصيل !

ومرة أخرى ؛ هل ذلك حسب الشعوبية ؟

هناك شيء غير ذلك كله من الممكن استغلاله فى سبيل توطيد دعائم الإيطوبيا المقبلة ، ربما كان هذا الشيء يأتى من حيث هو إفراز حتمى لمجتمع متطور تشعبت أجناسه واختلطت دماؤه . إلا أنه كان يكون مقبولا لو أنه لم يتعد الدائرة الشعبية التى لا يضبطها قانون . وأما أنها تتسع إلى ما كان لها فهنا موضع التساؤل .

تلك هى اللغة . . .

حطمت الشعوبية القيود التى فرضها العلماء والنقاد واجترؤوا على شعر الخاصة يقحمون فيه أساليبهم ومفرداتهم ؛ فإذا كل شيء ينهار وإذا الرجز وهو الفن العربى الصميم يلين كما رأينا لضربات الفرس المستمرة .

ولقد أشرت من قبل إلى تلك الظاهرة وسُقْتُ لها الأمثلة ، فليس ثمة داعٍ لأن أعود إليها . وهى إذا كانت تتخذ دليلاً على تقدُّم الحياة وعلى أنها كائن حىٌّ يصيبه ما يصيب الكائنات من تطور ، فإنّ ذلك لا ينسينا أنه من جانب آخر عملية مقصودة من أجل إرساء دعائم المجتمع الشعوبى الجديد [٢] .

قام بذلك شعراء البصرة وغير شعراء البصرة . وقام به كبار وغير كبار . وكان هناك كبير لا ينى يعمل على أن يفتّ فى عضد العروبة ؛ وهو إسحاق

---

(١) راجع بالتفصيل الأوراق ١١

(٢) أخالف فى ذلك المستشرق يوهان فك فى كتابه « العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » الذى ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار .

الموصلى الذى كان يسبُّ الأصمعى عند الخليفة ، هذا الرجل تمناه أمير عربى أن يشرب معه فى مجلس وكان يكنيه بصفوان فكتب له :

لعمرى لئن كان الأميرُ تمنانى بمجلِس لذّاتٍ ونزهةِ بستان

وفى سياق القصيدة لا يتورع عن أن يقول له مستعينًا بالفارسية :

وهلْ أنمعنْ ذاك المزاحَ الذى به إذا جئته سلّيْت همى وأحزانى
إذا قال لى « يامردمى خر » وكرّها علىَّ وكنّانى مزاحًا بصفوان

وأبو الفرج يقول : هذا كلام بالفارسية تفسيره يا رجل اشرب النبيذ[1]. وكان أبوه يفعل ذلك أيضًا ، بل كان يضمن أقواله تعبيراتٍ سريانية كأن ينشد للرشيد :

فقال « أزل بشينا » حين ودعنى وقد — لعمرك — زلنا عنه بالشين

وأبو الفرج يقول : أزل بشينا كلمة سريانية تفسيرها امض بسلام[2] وذلك فى حكاية حكاها للرشيد عن رجل قابله فى منزل خمار وشربا معًا ، ثم افترقا .

فإذا كان هكذا يخاطب الملوك فما بالنا بالشعر ينشد فى العامة ؟ لو كان الرواةُ حفظوا مثل هذا الشعر لرأينا ملامح الوضع اللغوى الذى طمعت الشعوبية فى إقامته . ولكن الأمر على أية حال لا يخلو من دلالة على الأسلوب الذى اتبعه الموالى فى بناء مجتمعهم المنشود .

وبعد . فتلك كانت إيطوبيا الشعوبيين ؟

كانت حلمًا داعبهم وعملوا على تحقيقه ، ولكن إلى أى مدى نجحوا ؟ هذا ما تفسره كتب التاريخ ، والثابت أن حركات الجزْر التى كان يصطنعها الخلفاء عوّقت دائمًا من سير الخطة نحو التنفيذ . كانت قوة الخليفة تقف دائمًا سدًّا منيعًا أمام هذا التيار العارم ، ومن هنا زعمت أن ملامح المجتمع الجديد

---

(١) الأغانى ٥ : ٨٠
(٢) السابق ٥ : ١١

المنشود لم تكن من الوضوح بحيث نضع أيدينا عليها بسهولة .

* * *

فإذا تركنا الشعوبية جانبًا من أجل شيء آخر يحدده ذلك الخطُّ الأخير من خطوط بحثنا ، وأينا عند السيد الحميرى تبشيره بالإمام الراجع وعند شعراء آخرين دعوات لينة هينة إلى إصلاح مرغوب فيه ، فأما عن الحميرى ففى رجعة محمد بن الحنيفة أنشد[1] :

حتى متى وإلى متى ومتى المدى يا ابن الوصى ؟ وأنت حيٌّ ترزق

فلقد صبر طويلاً . . إنه ينتظر أن يعود لأنه يؤمن بأنه لم يمت ، إمامه حى يرزق ويجب أن يعود !

وَضْعٌ يريد الحميرى تحقيقه ، أمل أشبه بأمل آخر لأبان ؛ فقد جعل الرشيد بعض صدقات البصرة وضياعها خراجًا ، فعمل الشاعر قصيدة ليحيى ابن خالد يحتج فيها و يطلب إقامة نظام لا يراه الخليفة[2] :

أبا علىٍّ إليك نشكو ظلما عرانا به مغير
تزعم أموالنا خراجًا وهى كما لم تزل عشور
وشرطنا أنّ كل محيي فهى له ملكها يصير

والظاهر أنّ ذلك الشاعر لم يكن يرضيه شيء مما يحدث فى مجتمعه ، فهو ينقد ما فى حياة البصرة الاجتماعية من فساد، ويكتب إلى قاضى المصر يقفه على ماقد يقع من قومه هو من شر ، وذلك فى شعر أشرنا إليه من قبل وينتهى فيه بقوله[3]:

فاتق الله فقـد أصـ ـبحت فى أمر عظيم

ولما شبت ثورة يحيى بن عبد الله بن حسن وتولى قيادة جيش الخليفة من

---

(١) طبقات ابن المعتز ٣٣
(٢) الأوراق ٣٨
(٣) السابق ٢٨

عجز عن إخمادها اقترح أبان أن يكل الرشيد الأمر للفضل بن يحيى تعصباً له وتدعيماً يعمل على إرسائه فقال[١] :

أطال الله فى عـزٍّ ونَصْرٍ بقـاءك يا أميرَ المؤمنينـا
إذا ما الحرب شبّ لها ضرام تَقَلَّبُ فيه أيدى الناكبينـا
فولِّ مهمها الفضلَ بنَ يحيى وقد رجَّمتَ فى يحيى الظنونا

وكذلك كان هدف الشعوبيين ، فإن أحدق بهم تنصلوا أو أنذروا بما قد يحدث من شر إذا أخذوا ، والطريف أنّ ابنَ المقفع يفعل ذلك أيضاً ؛ فقد بلغه أن عيسى بن علىّ أمير البصرة خاطب عامله خراسان بقتله ، فقال[٢] :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير

وكأنه كان يتنبأ . وكأنه كان يحس تلك المعارك التى خاضتها الشعوبية من بعده ، والتى كتب لها التوفيق أحياناً وباءت بالإخفاق أحياناً أخرى ، وفى كل الأحيان كانت الدماء تراق والنفوس تزهق والمجتمع يضطرب .

* * *

وماذا بعد ؟

لقد كان انتقال الحياة الأدبية إلى البصرة حَدَثاً كبيراً فى تاريخ الشعر العربى فى نطاق إطار معين من الزمان والسكان ، تطوَّرَ على النَّحْوِ الذى رأيناه . وبخطوطه الثلاثة التى قلنا إن حياته سارت فيها ، رأينا صورة من صور التنافس على البقاء بين القديم والجديد . واكتسب — مع شدة حرص النقاد على ألا يحطم الإطار التقليدى — صفات ربما لم يتفرد بها لما كان بين الشعراء من احتكاكات . إلا أننا نقول إنه كان جُمَّاع الحياة الفكرية الفنية حتى نهاية المدة التى حُدِّدَ بها بحثنا .

---

(١) الأوراق ٢١

(٢) الوزراء والكتاب ١١٠

ونلمح من وراء ذلك كله أثر البصرة فيه ، فتكون له صفة كلامية كانت نتيجة للاطلاع العميق على ما كان فى المصر من عقائد عتيقة . كما تكون له صفة الثراء فى المعنى وتحكم العقل لأخذ الشعراء بشتى ثقافات ورثها بلدهم .

رأينا ذلك ، فرأينا صورة أدبية من صور المسلمين ربما كان ينقصها أن تدعم بدراسة أشخاص ، وهذا ما قررت أن أفعل فى الباب القادم إن شاء الله .

* * *